

حوليات كلية الآداب

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

علل التغيير اللغوي

د. مصطفى زكي التوني

كلية التربية - جامعة عين شمس

الحولية الثالثة عشر

الرسالة الرابعة والثمانون

١٤١٢ - ١٤١٣ هـ

١٩٩٢ - ١٩٩٣ م

الرسالة الرابعة والثمانون



د. مصطفى زكي التوني
كلية التربية - جامعة عين شمس

حوليات كلية الآداب - الحولية الثالثة عشر - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

المؤلف:

- دكتور/مصطفى زكي حسن التوني.
- دكتوراة من جامعة عين شمس عام ١٩٨٣.
- التخصص الدقيق: فقه اللغة.

الإنتاج العلمي:

«اللغة وعلم اللغة» تأليف جون ليونز ترجمة وتعليق د. مصطفى التوني الجزء الأول دار النهضة العربية ١٩٧٧.

«اللغة وعلم اللغة» تأليف جون ليونز ترجمة وتعليق د. مصطفى التوني الجزء الثاني دار النهضة العربية ١٩٨٨.

«بعض المدارس والاتجاهات الحديثة في علم اللغة» مجلة البيان (الكويت) العدد ١٩٨٧/٢٥٠.

«اللغة والثقافة» مجلة البيان (الكويت العدد ١٩٨٧/١٥١.

«اللغة» مجلة الثقافة الأجنبية (العراق) العدد ١٩٨٨/٣.

محتوى البحث

الفصل الاول : تمهيد ١٣
١ ـ ملامح التغير اللغوي ١٣
٢ ـ اتجاهات وآراء في علل التغير اللغوي ٢٢
الفصل الثاني : العلل البنيوية ٣٣
١ ـ اعادة الضبط والاتزان ٣٣
٢ ـ الضغوط البنيوية الداخلية ٣٧
٣ ـ التغيرات العلاجية ٤٦
٤ ـ تسلل العناصر الاجنبية ٥٢
الفصل الثالث : العلل الاجتماعية ٥٥
١ ـ الحاجة الاجتماعية والاقتراض اللغوي ٥٥
٢ ـ الانتشار الثقافي والترجمة ٥٨
٣ ـ التنوع في اطار اللغة الواحدة ٦٥
٤ ـ الحاجة الاجتماعية والتهجين والتوليد اللغويان ٨٤
٥ ـ الحاجة الاجتماعية وموت اللغات ٩٠
الفصل الرابع : العلل السيكولوجية ٩٥
١ ـ التحليل والتركيب اللغويان ٩٥
٢ ـ القياس ١٠٠
٣ ـ اكتساب اللغة ١٠٣
٤ ـ الاستخدام الفني للغة ١١١
٥ ـ التقليعة والتقلبات العشوائية ١١٦
الفصل الخامس : العلل الفسيولوجية ١٢١
الفصل السادس : تقويم عام ١٢٩
المراجع ١٣٥

ملخص

التغيير اللغوي ظاهرة طبيعية ومستمرة وحتمية، وترجع هذه الظاهرة إلى مجموعة مؤتلفة من العلل أو العوامل، وقد تغيرت ملامح دراسة التغيير اللغوي على نحو ملحوظ في السنوات الأخيرة، وأمدت الدراسات اللغوية الحديثة الباحثين بمعطيات جديدة تمكنهم من تناول هذا الموضوع على نحو أفضل، فقد كان من المعتاد ألا يعير الباحثون سوى اهتمام ضئيل نسبياً لتلك العوامل التي تقع وراء التغيرات الكثيرة التي تحدث في اللغات، ويصنف هذا البحث العلل أو العوامل التي تقع وراء التغير في اللغة إلى أربع طوائف هي: العلل البنيوية، والعلل الاجتماعية، والعلل السيكولوجية، والعلل الفسيولوجية. ومن الأهمية أن نضع في الحسبان أنه من النادر أن يتسبب عامل واحد مهيمن في حدوث تغير ما في لغة ما، فالأغلب والشائع أن يكون وراءه مزيج من العوامل تسهم جميعها في حدوثه.

مقدمة

موضوع علل التغير اللغوي موضوع شائك، رأى بعض اللغويين أنه من غير الممكن - أو من الصعوبة البالغة - الخوض فيه، بيد أن الدراسات اللغوية الحديثة قدمت للباحثين من المعطيات ما يمكّن من إعادة القضية من جديد، ويتناول هذا البحث تلك القضية. فبالنظر إلى اللغة بوصفها نظاماً أو بنية نجدها كأي بنية أو نظام يكمن فيها من العناصر ما يدفعها إلى التغير، ومن ثم أفرد الباحث طائفة من العلل أسماها عللاً بنيوية. واللغة - كذلك - مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع الأمر الذي جعل الباحث يفرد طائفة أخرى من العلل أسماها عللاً اجتماعية. وترتبط اللغة أيضاً بالإنسان، وتعد في جانب من جوانبها نشاطاً عقلياً وفي جانب آخر نشاطاً عضلياً (عند الكلام) الأمر الذي جعل الباحث يفرد طائفتين أخريين من العلل أسماها عللاً سيكولوجية، وعللاً فسيولوجية، وفي النهاية تعرض الباحث لما يمكن أن يكون من غايات للتغير اللغوي بصفة عامة.

الفصل الأول

تمهيد

(١) ملامح التغير اللغوي

فكرة تغير اللغات فكرة قديمة لاحظها اللغويون العرب، وأمعنوا النظر فيها متدبرين عللها، وقد برزت هذه الفكرة بوجه خاص عندما كانوا بصدد التقعيد للغة القرآن الكريم: اللغة العربية الفصحى، فقد كان عليهم أن يتجنبوا ما أصاب لغة العرب المجاورين لغيرهم من الأمم والمخالطين لهم من تغير يرجع إلى احتكاك اللغة العربية بغيرها من اللغات، ولما كان اللغويون العرب في هذا المقام يبغون تقعيداً تزامنياً للغة العربية أو بعبارة أخرى كانوا ينهجون النهج الوصفي للغة، كان من الطبيعي أن يسقطوا من حسابهم الظواهر التاريخية ومنها بطبيعة الحال التنوعات اللغوية الموجودة في أطراف الجزيرة العربية بل وأن ينعتوها بالفساد[1] اللغوي «والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدى، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين القبائل هم قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم». وبالجملة، فإنه لم يؤخذ من حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام، لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة، وغسان، وإياد، لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية، ولا من تغلب والنَّمِر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزْد عُمان، لأنهم بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حَنيفة وسكان اليمامة،

---

(١) يشيع في كل القوميات وصف التغيرات اللغوية بالفساد. انظر على سبيل المثال: Aitchison, p.p. 16-20 وإلى مثل ذلك أيضا: الزبيدي، ص ص ٣٤ - ٣٥، وابن الجوزي، ص ص ٧٣ - ٧٦.

ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم(٢).

وأكثر من ذلك فقد وجدنا من العلماء العرب من أدرك أن التغير اللغوي قد يتضمن انحدار لغة أو أكثر من لغة سالفة، فابن حزم يرى أن اللغات السريانية، والعبرانية، والعربية الشمالية ترجع إلى لغة واحدة «إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية وهي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير، لغة واحدة تبدلت بتبديل مساكن أهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتها»(٣).

وأدرك ابن خلدون التغير الهائل الذي أصاب العربية لا سيما استبدالها (في صورتها الدارجة) علامات الإعراب بنظام آخر يتعلق بترتيب الكلمات في إطار الجملة «لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير، وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير»(٤).

ولم تكن تلك الفكرة غائبة عن الباحثين في أوروبا قديماً، فقد عرف الدارسون منذ وقت طويل أن اللغات تتغير مع الزمن، وعرفوا أيضاً أن اللغات الحديثة انحدرت من لغات أقدم، فاللغة الإنجليزية انحدرت من اللغة الإنجلوسكسونية، واللغات الفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، والسردانية، والإسباعبرية انحدرت من اللغة اللاتينية وهلم جرا.

على أنه قد غاب عن اللغويين في الشرق والغرب ـ قديماً ـ أن يكون التغير ظاهرة مستمرة وعامة لا يمكن أن تنجو منها لغة من اللغات في وقت من الأوقات، وأن هذا التغير

(٢) السيوطي، ج ١ ص ٢١٢.
(٣) ابن حزم، ج ١ ص ٣٣.
(٤) ابن خلدون، ص ٥٥٥.

طبيعي ولا يصح أن يقترن بالفساد أو التدهور، ويرجع غياب مثل هذه الأفكار إلى الاتجاه المحافظ للغات الأدبية العظمى والتي لا يقبل المنتمون إليها أن يسلموا بحدوث تغير فيها بسهولة(٥).

ويتميز التغير اللغوي بالإضافة إلى استمراريته وعموميته بأنه يشمل جميع جوانب البنية اللغوية، فهو يصيب اللغة في أصواتها، وفي بنيتها الصرفية، وفي بنيتها النظمية، وفي مفرداتها، ودلالاتها، ووظائفها، والحدود الجغرافية لمناطق نفوذها... الخ.

وإذا تدبرنا تلك الجوانب في اللغة العربية وجدنا أن بعض الأصوات فيها قد أصابها التغير، فالمتدبر لوصف القدماء والمحدثين من اللغويين لصوتي الضاد والطاء يرى أن نطقنا المعاصر لهما يختلف عن نطق المعاصرين لسيبويه لهما(٦)، وتدبر مواد معجمية في معاجم عربية قديمة ومقارنة الدلالات الواردة فيها لها مع الدلالات التي نربطها بها في العصر الحالي نجد أن التغير الدلالي قد أصابها في معظم جوانبها، فأين معنى كلمة «سيارة» الوارد في القاموس المحيط والسيارة القافلة(٧) من معناها الذي نربطه بها في أيامنا هذه؟ ولا نذكر العديد من الكلمات التي استحدثت في العربية المعاصرة للإشارة إلى العديد من الأشياء التي استحدثت في المجتمع العربي. وفيما يتصل بالبنية النظمية لا نجد أبلغ من قول ابن خلدون الذي استشهدنا به منذ قليل على التغير العميق الذي أصاب العربية عبر الزمن، أما فيما يخص البنية الصرفية فيمكن أن تشير أبنية مثل طبيعي، وبديهي، ورئيسي (حيث يجب في الصيغ الأقدم حذف الياء عند النسب إلى فَعيلة فكان من الواجب أن نقول طبعي، وبدهي... الخ) إلى حدوث تغيير في البنية الصرفية للكلمات، وهو ما تشير إليه كذلك صيغ مثل عجوزة وزوجة (في الصيغ الأقدم بلا تاء للتأنيث) وعلم جرا(٨).

---

(٥) انظر: Aitchison, p.15.

(٦) انظر: سيبويه، ج ٤، ص ص ٤٣٤ - ٤٣٥، وما لمبرج، ص ١٢١، وحجازي، اللغة العربية عبر القرون، ص ١٠٣.

(٧) القاموس المحيط مادة (س ي ر).

(٨) حسن، ج ٤، ص ٥٥٠.

ولا يقتصر التغير اللغوي الذي أصاب اللغة العربية على ما سبق ذكره في الفقرة السابقة بل تعرضت لشتى ألوان التغير التي يمكن أن تصيب أي لغة من اللغات، فدخلت إليها ألفاظ من لغات أخرى مثل سينما، وتليفون، وتلفيزيون، وفونيم، ومورفيم، وتنس، وباسكت، وباليه... الخ، ودخل إليها أيضاً تعبيرات وتراكيب جديدة مثل «نفس الوقت» بدلاً من الصياغة القديمة «الوقت نفسه»، و «علل واتجاهات التغير اللغوي» بدلاً من الصياغة الأقدم «علل التغير اللغوي واتجاهاته»، ومثل «أحد المدرسين» بدلاً من الصياغة الأقدم «مدرس»، وكلها مفردات وتراكيب يستخدمها الكتاب جنباً إلى جنب مع المفردات والتراكيب التي يرضى عنها اللغويون المحافظون، وثمة اتجاه في النثر العربي الحديث لم يعهد من قبل يتعلق بتراكم الإضافة مثل: استحالة وقف انتفاضة شعب فلسطين، وهذه التراكيب يرجع كثير منها إلى تأثر النثر العربي بالأساليب الأجنبية.

وشهدت اللغة العربية موجات مد كما شهدت موجات انحسار، فبعد الفتح العربي الإسلامي انتشرت اللغة العربية خارج موطنها الأصلي «الجزيرة العربية» حيث بسطت نفوذها على شمال أفريقيا، والشام، والعراق، وأجزاء من إيران، وباكستان، والهند، وجنوب غرب أوروبا، وأجزاء كبيرة من وسط أفريقيا وساحل البحر الأحمر، وشهدت كذلك عبر الزمن انحساراً عن جنوب غرب أوروبا، وأجزاء كبيرة من الهند، وباكستان، وإيران، وأفريقية، وتذبذبت مكانتها بين لغة للعلم والدين، إلى لغة للدين، وأصبحت اليوم بفضل القوة العسكرية والاقتصادية لدول جامعة الدول العربية لغة عالمية في المؤسسات الدولية، واللغة الرسمية لعشرات الإذاعات المحلية والعالمية، ومن المنتظر أن تتزايد قوة وانتشارا مع التنمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي تشهدها الدول الناطقة باللغة العربية بالإضافة إلى ما يمكن أن يتحقق من وحدة بينها

ولما كانت اللغة العربية الفصحى لغة محافظة بحيث تشكل استثناء بين لغات العالم من حيث درجة محافظتها، وامتداد حياتها، وصمودها عبر الزمن، وهي خصائص لا نزال نجد من يجسدنا عليها كان علينا في هذا البحث أن نعرض للعديد من اللغات نرصد من خلالها ما أردنا أن يكون محوراً لهذا البحث ألا وهو «علل التغير اللغوي» ويمكننا أن نتخذ

من اللغة الإنجليزية مثالاً يوضح لنا ملامح التغير اللغوي نظراً لوضوح مراحل ثلاث في إطار تلك اللغة، انتقلت اللغة خلالها من مرحلة إلى أخرى فيما يبدو كما لو كان تحولاً شاملاً وأصبح من الممكن أن ندعو كل مرحلة منها لغة مستقلة، والمراحل الثلاث هي: الإنجليزية القديمة (أو الانجلوسكسونية)، والإنجليزية الوسطى، والإنجليزية الحديثة.

وتعد اللغة الإنجليزية القديمة (الانجلوسكسونية) محصلة لهجات جرمانية كانت تتكلم بها مجموعة من القبائل الجرمانية هي: Angles، Saxons، Jutes، ومن الاسمين الأولين كان اسم اللغة الإنجليزية القديمة «الانجلوسكسونية» ومن الاسم الأول وحده كان اسم البلاد التي فيها Engla—land(بلاد الإنجليز)[٩].

وكانت هذه القبائل تدين بالوثنية بيد أنه بعد استقرارها في هذه البلاد تحولت عبر قرنين من الزمان (من القرن السادس إلى القرن الثامن) إلى المسيحية الأمر الذي ادخل إلى لغتهم طائفة كبيرة من الألفاظ الدينية من اللغة اللاتينية التي كانت بمثابة لغة الدين حينئذ، ويعد دخول هذه الطائفة في اللغة الإنجليزية القديمة تغيراً لغوياً يمكن أن نطلق عليه اسم الاقتراض ويقف وراءه علة الحاجة الاجتماعية بالإضافة إلى العامل الديني بطبيعة الحال.

وتكشف هذه المرحلة كذلك عن أن اللغات الأدبية العظمى الموجودة في العالم الآن أو التي كانت موجودة من قبل كانت في الأصل لهجات دارجة، فاللغة الإنجليزية التي نحن بصددها كانت اللهجات الدارجة للقبائل الجرمانية التي تعرضنا لها في الفقرة السابقة، وهي التي غزت الجزر البريطانية في القرن الخامس بعد الميلاد، واللغة العربية كانت لهجة قريش الدارجة في يوم من الأيام[١٠]، واللغة اللاتينية كانت اللهجة الدارجة لبعض القبائل الإيطالية، وهذه اللهجات الدارجة دعمتها العوامل الاقتصادية والسياسية والعسكرية والدينية بحيث صارت هذه اللهجات الدارجة - نظراً لما أحاطها من قوة ومكانة - اللغة المشتركة لقبائل كثيرة في مناطق شاسعة، ثم اللغة الأدبية العالمية، وتتجلى في مثل هذا التغير العوامل الاقتصادية والسياسية والعسكرية والدينية التي تدفع باللهجة إلى أن تحتل

---

(٩) ليونز، ج ٢، ص ٤٥.

(١٠) السنجرجي، ص ص ١٥ - ٢٠، والجندي ج ١٠، ص ٢٣.

مكانة اللغة الأدبية العظمى، وفي لغتنا العربية تمثلت هذه العوامل قبل الإسلام في السيطرة الاقتصادية لقريش على التجارة الخارجية للجزيرة العربية، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، كما تمثلت هذه العوامل في مكانة قريش الدينية عندما عمل رجالها سدنة للأوثان التي كان العرب يعبدونها قبل الإسلام، وقد لاقت هذه العوامل دعماً هائلاً بفتح مكة واتحاد القبائل العربية تحت راية الدين الإسلامي، وخضوعها لسلطان الدولة الإسلامية العربية.

وقد دخلت الإنجليزية طائفة من كلمات اللغة الاسكندنافية القديمة (Old Norse) نظراً لمجيء مجموعة من الأوربيين الشماليين الفايكنج وكان هدفهم في البداية السلب والنهب ثم استقروا في النهاية في أجزاء من المناطق الساحلية لبريطانيا، ومن الألفاظ الحديثة الشائعة التي ترجع إلى هذه الفترة (القرنين التاسع والعاشر): Give, law, leg, skin, sky, take, they وتكشف هذه المرحلة عن دور الاحتكاك بين اللغات في حدوث التغير فيها(١١).

والمرحلة التالية لذلك تعد مرحلة حاسمة انتقلت خلالها اللغة الإنجليزية من صورة إلى صورة أخرى، نطلق على الأولى «الإنجليزية القديمة»، ونطلق على الثانية «الإنجليزية الوسيطة»، وتبدأ هذه المرحلة بسيطرة الغزاة النورمانديين على إنجلترا بعد انتصارهم في هاستنجز Hastings سنة ١٠٦٦ تحت قيادة وليم الفاتح الذي حكم إنجلترا منذ هذا الانتصار إلى عام ١٠٨٧ م، وأصبح هؤلاء الغزاة المتكلمون بالفرنسية طبقة حاكمة، ومن ثم كانت اللغة الفرنسية لغة طبقة النبلاء، ولغة الحكم، ولغة القانون، ولغة السلوك المتحضر في إنجلترا في القرنين التاليين للغزو النورماندي، ومن ثم أصبحت مصدر كلمات حديثة كثيرة دخلت اللغة الإنجليزية، وتعد اللغة الإنجليزية الوسطى الصورة الفرنسية للانجليزية(١٢).

وتكشف هذه المرحلة عن علل عديدة تقبع وراء التغير اللغوي الذي انتقل باللغة الإنجليزية مما يطلق عليها «الانجلوسكسونية» إلى ما يطلق عليها «الإنجليزية الوسطى»،

(١١) yule, p.p. 172-175.

(١٢) ibid, 173 .

فالعامل السياسي والعسكري هو الذي مهد الطريق لمرور الإنجليزية في طريق التحول هذا، ويتمثل في الانتصار الذي أحرزه الغزاة النورمانديون وسيطرتهم على إنجلترا بعده، وهو ما ترتب عليه صيرورة اللغة الفرنسية لغة الطبقة الحاكمة، ولغة الحكم، ولغة السلوك المتحضر، الأمر الذي سيترتب عليه علل اجتماعية يمكن أن تتمثل في تقليد الطبقة الدنيا التي تتكلم بالإنجليزية الطبقة العليا التي تتكلم بالفرنسية وفتح الباب أمام دخول الإنجليزية كثير من الأبنية والمفردات والملامح الفرنسية.

ويعد عصر النهضة الذي وصل إنجلترا في نهاية القرن الخامس عشر حداً فاصلاً بين اللغة الإنجليزية الوسطى واللغة الإنجليزية الحديثة، وقد شهدت هذه الفترة عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية وعسكرية دفعت باللغة الإنجليزية التي صورتها ومكانتها الراهنتين، وذلك مثل تحول إنجلترا من الوضع الإقطاعي إلى الوضع البرجوازي، وانتشار التعليم والثقافة، وامتداد نفوذ الأمبراطورية البريطانية شرقاً وغرباً[١٣].

والتغيرات التي مرت بها اللغة الإنجليزية لم تحدث بين عشية أو ضحاها فهي تغيرات تدريجية، وربما كان من الصعوبة إدراكها أثناء حدوثها، وثمة مصادر عديدة للتغير اللغوي منها التغيرات الاجتماعية الأساسية التي تحدثها الحروب، والغزوات، والانهيار الطبقي، ومن هذه المصادر أيضاً التواصل الثقافي بين الأجيال، فكل جيل جديد يجب أن يجد طريقة خاصة به لاستخدام اللغة الخاصة بالجيل السابق، وعملية التواصل الثقافي هذه لا تتوقف أبداً، ويجب على كل مستخدم جديد للغة أن يعيد خلق لغة المجتمع بشكل أو بآخر، وإذا ما وضعنا في اعتبارنا أن هنالك نزعة طبيعية ـ لا يمكن تفاديها ـ للتعرف على بعض العناصر على نحو دقيق وعلى عناصر أخرى على نحو تقريبي فحسب بل أن هنالك كذلك رغبة عرضية لأن تكون مختلفة ـ نتوقع ألا تكون اللغة ثابتة وأن يكون التغير والتنوع أمرين لا مناص منهما.

وقد شملت التغيرات التي أصابت اللغة الإنجليزية كل جوانب البنية اللغوية، ومن

---

(١٣) ليونز، ج ٢، ص ٥.

أوضح التغيرات الصوتية التي لحقت بالبنية اللغوية ما يتعلق بكيفية نطق الحركات. لاحظ التغيرات التي لحقت بالحركة الطويلة الموجودة في اللغة الإنجليزية القديمة في الكلمات الآتية: كلمة منزل تحولت من [hu: s] في اللغة الإنجليزية القديمة لتصبح [haus] في اللغة الإنجليزية الحديثة، وكلمة زوج تحولت من [wi: f] في اللغة الإنجليزية القديمة إلى [wayf] في اللغة الإنجليزية الحديثة، وكلمة ملعقة تحولت من [spo: n] في اللغة الإنجليزية القديمة لتصبح [spu: n] في اللغة الإنجليزية الحديثة، وحدث أيضاً فيما يتعلق بالأصوات الإنجليزية غياب الصوت المهموس الطبقي الاحتكاكي [X] الذي كان يستخدم في نطق كلمات إنجليزية مثل [nicht] (ليل) [nixt]، فهو غائب في الصيغة الأحدث [night] [nayt][١٤].

ومن التغيرات التي تتعلق ببنية الكلمات نلاحظ حدوث بعض التغيرات مثل ما يعرف بالقلب المكاني (metathesis) فقد تحولت كلمة bridd في اللغة الإنجليزية القديمة إلى bird (طائر) في اللغة الإنجليزية الحديثة، وتحولت كلمة hros في اللغة الإنجليزية القديمة إلى Horse(حصان). في اللغة الإنجليزية الحديثة، وما يعرف بإقحام صوت (epenthesis) فقد تحولت كلمة spinel في اللغة الإنجليزية القديمة إلى كلمة spindle (مغزل) في اللغة الإنجليزية الحديثة، وتحولت كلمة aemtig في اللغة الإنجليزية القديمة إلى empty (فارغ) في اللغة الإنجليزية الحديثة[١٥].

ومن التغيرات التي تتعلق بنظم الجملة ما يتعلق بترتيب الكلمات في إطار الجملة، ففي النصوص الإنجليزية القديمة نجد الترتيب (الفاعل ـ الفعل ـ المفعول)، ونجد كذلك مجموعة من الجمل ذات ترتيب مختلف، بيد أنه في اللغة الإنجليزية الحديثة لم يعد ذلك الترتيب المختلف مقبولاً، كما نجد أن الإنجليزية الحديثة فقدت عدداً كبيراً من اللواصق التصريفية[١٦].

---

(١٤) yule, p.174 .

(١٥) ibid, p.p. 174-175 .

(١٦) ibid, p.p. 175-176 .

ومن التغيرات التي تتعلق بالمفردات نجد أن اللغة الإنجليزية الحديثة قد هجرت العديد من الكلمات التي كانت موجودة في اللغة الإنجليـزية القـديمة، وذلـك مثل foin (المبارزة بالسيف) و were (الإنسان الذئب)، بالإضافة إلى تحولات دلالية تتضمن إتساع المعنى أو تضييقه كما في كلمة dog التي كانت تستخدم في اللغة الإنجليزية القديمة للإشارة إلى سلالة معينة من الكلاب، وتستخدم الآن للإشارة إلى كل السلالات، وكلمة mete كانت تستخدم للإشارة إلى أي نوع من الطعام بيد أنها تستخدم الآن في اللغة الإنجليزية الحديثة للإشارة إلى نوع معين من الطعام هو اللحم فحسب(١٧).

(١٧) palmer, p.p. 11-13 .

(٢) اتجاهات وآراء في علل التغير اللغوي

ذهب بعض اللغويين إلى أن البحث في علل التغير الصوتي ليس في متناول يد الباحثين، ومن هؤلاء بلومفيلد (١٩٣٣)[١٨]، وروبرت كنج (١٩٦٩)[١٩] وآخرون، ورأى بعض اللغويين أن التغير اللغوي يرجع إلى تنوع مربك من العوامل التي تحيط بمعظم جوانب الحياة الإنسانية الفيزيائية، والاجتماعية، والذهنية، والبيئة حتى إن بعضهم أرجع بعض التغيرات الصوتية إلى قوة الزفير عند السكان القاطنين في المناطق الجبلية المرتفعة، وكان سوسير (في محاضراته ١٩١٦) قد ذهب إلى أن البحث في علل التغيرات الصوتية من أكثر المشكلات صعوبة في علم اللغة، واستعرض العلل التي طرحها الباحثون قبله وأعرب عن عدم رضاه عنها[٢٠]. ومن المؤكد أن هناك عوامل علية مختلفة عديدة ليس فيما يتعلق بالتغير اللغوي فحسب ولكن فيما يتعلق بأي ظاهرة، فتفوق طالب في دراسته لا يرجع عادة إلى علة واحدة وإنما إلى العديد من العلل بعضها يتعلق بالصحة العامة، والتنشئة الاجتماعية، وبعضها الآخر يتعلق بالجهد المبذول وأداء المؤسسة التعليمية، وثمة علل أخرى قد تتضافر مع العلل السابقة.

وذهب بعض الباحثين إلى أن التغير اللغوي عامة والصوتي خاصة مرده الاختلاف بين الاستعدادات النوعية بين الأجناس والأجيال، بيد أن هذا الرأي يقف في وجهه كل الشواهد اللغوية، فلا فرق بين الأجناس والأجيال فيما يتعلق بالاستعدادات النوعية اللغوية، فالزنجي المولود حديثاً الذي ينتقل إلى فرنسا يتكلم بالفرنسية مثل الطفل الفرنسي لأبوين وجدين فرنسيين، كما أنه لا يسمح بتعبيرات مثل جهاز النطق الإيطالي، أو فم المتكلمين الألمان[٢١].

(١٨) Bloomfield, p.385 ·

(١٩) king, p.189 ·

(٢٠) Saussure, p.147 ·

(٢١) ibid, p.147 ·

ومن الباحثين من ردوا التغيرات الصوتية إلى عمليات تكيف لشروط التربة والمناخ، بيد أن هذه العلة وإن كان من الممكن قبولها بشكل عام تكون في غاية التعقيد بمجرد دخولنا في التفاصيل(٢٢).

ومن الباحثين من رد التغيرات الصوتية إلى قانون الجهد الأقل، ووفقاً له يحل النطق الأيسر محل النطق الأصعب، بيد أن الشواهد اللغوية لا تدعم هذا الرأي الذي يغري الناس بقبوله، فإذا كان تحول الصوامت الانفجارية إلى صوامت احتكاكية، وتحول الحركات المزدوجة إلى حركات مفردة، وتحول الحركات الطويلة إلى حركات قصيرة يمكن أن يعزى إلى قانون الجهد الأقل فإن هنالك أنماطاً من التغير اللغوي معاكسة لذلك، فهل نعزوها إلى قانون الجهد الأعظم؟ الأمر الذي ينفي مثل هذه العلة، ويبدو أن سوسير قد أغراه هذا التفسير فهو يرى أن السهولة والصعوبة نسبية فقد تختلف اللغات فيما يمكن وصفه بالسهولة أو بالصعوبة، كما أن السهولة والصعوبة تختلف من الزاوية التي ينظر منها، فتقصير الحركة الطويلة يعني جهداً أقل فيما يتعلق بالمدة (duration)، لكنه يعني جهداً أعظم فيما يتعلق بالعناية الأكبر التي تتطلبها الحركات القصيرة بالمقارنة مع الحركات الطويلة، ويرى أن قانون الجهد الأقل يتطلب دراسة شاملة، ويجب أن ينظر إليه في ضوء وجهتي النظر الفسيولوجية (النطق)، والسيكولوجية (الانتباه)(٢٣).

ومن الباحثين من رد التغير الصوتي إلى تعلم الأصوات في فترة الطفولة، فالطفل ينجح بعد محاولات عديدة، وبعد عمليات تفتيشية واسعة في نطق ما يسمعه ممن حوله، وفي هذه النقطة تبدأ كل التغيرات حيث تستمر بعض الأخطاء التي لم تصحح لدى الفرد لتصبح ثابتة في الجيل الصاعد، بيد أن سوسير يشعر بأن هناك من الشواهد اللغوية ما يعارض هذا التفسير، فالأطفال عادة ينطقون صوت [K] كما لو كان [T] في الوقت الذي لا نجد ذلك في التغير اللغوي الذي يصيب لغاتنا، لكنه لا يريد أن يرفض مثل هذا التفسير، ويرى أن تلك

(٢٢) ibid, p.148 .

(٢٣) ibid, p.148-149 .

القضية تحتاج إلى اهتمام كبير وعناية أكبر(٢٤).

وقد لاحظ سوسير أن العلل السابقة لا يطرد عملها، فهي لا تعمل إلا على نحو منقطع، ويرى أن مثل هذه الظواهر تصيب الباحث بالإرباك، ومن الصعوبة تفسيرها، وأشار إلى علل أخرى ترتبط بالعلل السابقة، فثمة ارتباط بين التقلب السياسي والتقلب اللغوي، فقد تزامنت التحولات الحاسمة للغة اللاتينية في تطورها إلى اللغات الرومانية (الإيطالية، والإسبانية، والسردانية، والإسباعبرية... الخ) مع فترة تدهور اجتماعي وإخلال بالنظام، ورأى سوسير أن الاستقرار السياسي لا يؤثر في اللغة بقدر ما يؤثر فيها التقلب السياسي، وأنه يمكن أن ترد بعض التغيرات اللغوية إلى الطبقة التحتية اللغوية، فاستيعاب السكان الموجودين للوافدين ولغتهم ينتج عنه تغيرات معينة، وهناك من الباحثين من يرد التغير اللغوي إلى الدوافع السيكولوجية للتغير بصفة عامة، ولا يرى فرقاً بين التغير اللغوي والتغير الذي يتعلق بنماذج (موديلات) الأزياء والسيارات(٢٥).

ولا يمكن أن نتحدث عن التغير اللغوي دون أن نذكر النحاة الجدد (neogrammarians)، وذلك على الرغم من أن جهودهم قد انصبت على التغير الصوتي، وليس التغير اللغوي عموماً أو البحث في علله خصوصاً.

والنحاة الجدد مجموعة من النحاة، تتبع مبادىء معينة شاعت في القرن التاسع عشر، وقد تكونت هذه المجموعة في جامعة ليبزج بألمانيا، وعلى رأسها بروجمان K. Brugmann، واوستهوف H. Osthoff، وسيفرز E. Sievers، وديلبروك Delbruch، وبراوني W. Braune، وباول H. Paul، وليسكين Leskien، ويطلق على هذه المجموعة أيضاً اسم النحاة الشبان، وأحياناً أخرى مدرسة ليبزج Leipzig school (٢٦).

وأبرز ما نادى به النحاة الجدد هو أطراد القوانين الصوتية اطراد القوانين الطبيعية، فليس هناك شذوذ في القوانين الصوتية، وإذا ثبت أن صوتاً من الأصوات في لغة ما تغير إلى

(٢٤) ibid, p.149

(٢٥) king.p. 189, Saussure, p.151

(٢٦) انظر: ليونز، ج ٢، ص ٨، وانظر أيضا: Crystal,240.

صوت آخر في ظل شروط معينة في زمن معين من تاريخ اللغة فينبغي أن ينطبق هذا التغير على كل الأصوات المشابهة في كلمات تلك اللغة، وفي إطار تلك الشروط «التغيرات الصوتية التي يمكننا ملاحظتها في التاريخ اللغوي المدعم بالوثائق نشأت وفق قوانين ثابتة لا تعاني اضطراباً بما يتفق مع القوانين الأخرى»(٢٧).

وتكشف هذه الآراء عن ميل هذه المجموعة من العلماء إلى أن يجعلوا من علم اللغة التاريخي علماً صارماً بما يتوافق مع العلوم الطبيعية التي كانت قد حققت تقدماً ملحوظاً في زمنهم، ونود أن نذكر في هذا المقام أن مبدأ النحاة كان مثيراً للجدل بدرجة كبيرة عندما طرح في السبعينات من القرن التاسع عشر، بيد أنه بعد فترة وجيزة حاز قبول معظم أولئك الذين نعدهم التيار الرئيسي بين الباحثين باعتباره مبدأ أساسياً، ليس في المنهج المقارن وحده، ولكن في فرع علم اللغة التاريخي بأكمله.

كما أنه من المفيد أن نلفت الأنظار إلى أن ما يعرف باسم القانون الصوتي لا يشبه بأي شكل من الأشكال القوانين الموجودة في العلوم الطبيعية، إذ ليست له قيمة تفسيرية أي أنه ليس أكثر من خلاصة لما حدث في منطقة معينة، أبو بعبارة أكثر تحديداً في جماعة لغوية معينة بين نقطتين زمنيتين، وليست لديه القدرة على التنبؤ، أو الامتداد خارج الإطار المكاني والزماني المشار إليه.

وفيما يتعلق بفرضية عمل القوانين الصوتية دون استثناءات نود أيضاً أن نذكر أن هناك شواهد كثيرة تجعل هذه الفرضية زائفة على نحو واضح، إلا أنه بالتعمق في هذه الشواهد يمكن أن نصل إلى العديد من العوامل التي تنشأ بسببها تلك الاستثناءات.

وفي القرن العشرين برزت مدرستان لغويتان عظيمتا الأثر في الدراسات اللغوية، الأولى المدرسة البنيوية ويعد سوسير ممن مهدوا الطريق أمام ظهورها، والثانية هي المدرسة التوليدية ويعد تشومسكي رائداً لها، وقد أسهمت المدرستان في القضايا اللغوية بشكل عام، وكانت لهما بعض الإسهامات في تناول علل التغير اللغوي بالبحث، وأكثر ما يميز هاتين

(٢٧) ليونز، ج ٢، ص ٢٥.

المدرستين في ذلك الأمر أنهما تمسكتا بأن كل تغير جزئي يجب أن يقوم في إطار النظام اللغوي ككل.

وقد أكد الاتجاه التوليدي على حقيقة أن الطفل عندما يبدأ في اكتساب لغته لا يتعلم الأنماط اللغوية عن طريق الحفظ والتقليد، ولا عن طريق تعلم القوانين الموجودة وراء تلك الأنماط، ولكن يجب عليه أن يستخلص بنفسه هذه القوانين من أنماط التناظر الموجودة بين الشكل والمعنى الذي يتحرى عنه في الأقوال التي يسمعها ممن حوله، أو بعبارة أخرى فإن اللغة لا تكتسب بشكل جاهز لكن يجب أن يخلقها من جديد كل طفل في إنجاز عقلي هائل يتم معظمه فيما بين الثانية والخامسة من عمره، ويبدو أن أنماطاً معينة من التغير اللغوي وعلى الأخص ما يطلق عليه اسم القياس يمكن أن نرده إلى هذه العملية المستمرة لإعادة خلق اللغة(٢٨).

وتتضمن الفكرة التي تناولناها في الفقرة السابقة تمييزاً حاداً بين الأداء (أو الكلام عند سوسير)، والقدرة (أو اللغة عند سوسير)، وتتضمن أيضاً أن التغير اللغوي يبدأ في الأداء أولاً (كلام الجيل السابق) ثم يتحول في الجيل اللاحق إلى القدرة (حيث يعيد أطفال الجيل اللاحق خلق لغتهم على أساس كلام الجيل السابق) فإلى أي حد يتفق ذلك مع الشواهد اللغوية؟.

في القرن السابع عشر فقدت اللغة الإنجليزية الصوتين [K]، و[G] إذا كانا قبل الصوت [N] في بداية الكلمة، ومن ثم أصبحت كلمات مثل: gnarled (معقد)، و gnaw (يقرض)، و Knife (سكين)، و Knot (عقدة) تنطق بالطريقة الجديدة، ويمكن تفسير هذه الظاهرة ـ وفق الفكرة السابقة ـ بأن التغير الصوتي ينشأ خارج النظام اللغوي من خلال تعديلات في النطق تعزى إلى عوامل خارجية تتعلق بالأداء في البداية، ففي البداية يبدأ كثير من المتكلمين في نطق الصوتين [K]، و [G] على نحو ضعيف ثم يحذفونهما في مرحلة تالية، وعندما يصبح هذا النطق شائعاً بصورة كافية ينظر إليه على أنه الاستخدام القياسي، ويتغير النظام اللغوي ذاته ليدمج هذا التغير فيه.

(٢٨) kiparsky, Historical Linguistics, p.p. 303-304 -

وثمة اعتراض يوجهه بعض الباحثين إلى هذه الفكرة، فالأداء غير السليم للسيمفونية لا يغير من القطعة الموسيقية، والجرائم مهما تكرر حدوثها لا يمكن أن تغير القوانين التي انتهكتها، فكيف يمكن للأداء المنحرف الذي تسببه ظروف وراء اللغة أن يؤدي إلى تغييرات في النظام اللغوي؟ بيد أن هذا الاعتراض يمكن الرد عليه بأن القوانين والقطع الموسيقية تتعلم بوصفها قواعد مصوغة بشكل صريح، وذلك بخلاف النظم اللغوية التي لا يمكن أن تتجرد من مادة الكلام المدركة بالحواس، الأمر الذي يجعل القواعد التي من النمط غير الصريح تخضع باستمرار لتنقيحات تجعلها متفقة مع الأداء الفعلي، وتفترض هذه الفكرة أن هناك نوعاً من التغذية الارتجاعية يلحق بواسطتها النظام اللغوي بخرجه اللغوي إن جاز التعبير(٢٩).

وتصطدم هذه الفكرة باعتراض آخر يذهب إلى أن التغير اللغوي يتسبب فيه نزوع دائم تجاه التيسير والتبسيط مما ينفي المصادفة في التغير اللغوي وهو ما تتضمنه فكرة أن التغير اللغوي يبدأ في الأداء أولاً، بيد أنه إذا كان هناك من أنماط التغير اللغوي ما يكشف عن اتجاه إلى التبسيط والتيسير فإن هناك تغييرات أخرى لا يمكن فهمها وفق هذا الاتجاه، الأمر الذي ينفي وجود علة نزوعية من النظم اللغوية تجاه التيسير والتبسيط.

وتفترض فكرة بداية التغير اللغوي في الأداء أن يكون التغير في الأصوات مستقلاً عن البنية الصرفية، والبنية النظمية، بيد أن ذلك لا تؤيده الشواهد اللغوية، فإذا تدبرنا ظاهرة سقوط الصوتين [K]، [G] بعد [N] في بداية الكلمة في اللغة الإنجليزية وجدنا أن التغير في الأصوات لو كان مستقلاً عن البنية الصرفية والبنية النظمية، لامتد إلى كلمات إنجليزية مثل acknowledge حتى تتماثل مع a knowledge مثلما تماثلت aboard مع a board، ولما كان ذلك لم يحدث فقد اتضح أن التغير الصوتي لا ينفصل عن مستويات البنية الأخرى، الأمر الذي يصطدم بمتضمنات فكرة أن التغير يحدث في الأداء أولاً، ثم ينتقل إلى القدرة، وتعرف هذه الفكرة في المؤلفات اللغوية بنظرية الأداء.

---

(٢٩) ibid. p.305

ودفعت تلك الاعتراضات الباحثين في اتجاه آخر يطلق عليه اسم نظرية القدرة اللغوية، ووفقاً لتلك النظرية يحدث التغير في القدرة أولاً، ولا يسبق هذا التغير تغيرات سابقة خارجية تقع في الأداء، ويعد التغير الصوتي تغيراً في المستوى الفونولوجي للنظام اللغوي، وذلك بإضافة قوانين فونولوجية جديدة للنظام اللغوي، وهي قوانين يسهل اندماجها في النظام ككل، ويتم هذا في إطار العملية التي يطلق عليها البنائيون إعادة البناء (بمعنى إعادة الضبط والتنظيم اللغويين وتقابل عملية إعادة البناء التاريخي التي يقوم بها علماء اللغة المقارن وفق المنهج المقارن)، وقد تكون هناك عمليات أخرى في إطار التغير اللغوي تتضمن إعادة ترتيب القوانين أو حذف بعضها، أو استبدال قانون بآخر، أو دمج قانون في آخر(٣٠).

ويفترض التوليديون أن يتضمن اكتساب الأجيال اللاحقة لغة الأجيال السابقة عمليات حذف بعض القوانين، أو إعادة ترتيبها، أو استبدال بعضها ببعض، أو دمج بعضها في بعض بحيث لا تسير النظم اللغوية ـ بالإضافة الدائمة إليها ـ في اتجاه التعقيد والإرباك، ويساعد على ذلك أن الطفل لا يتعامل مع اللغة التي يكتسبها إلا من وجهة نظر تزامنية تنبت فيها تماماً الصلات التاريخية بالنظام اللغوي الراهن الأمر الذي لا يكون هناك مبرر ـ مثلاً ـ لوجود قانون بحذف [K] من كلمة knife ما دام يسمعها ببساطة [nayf]، وعليه فإن القوانين التي تضاف إلى النظم النحوية أثناء التغير الصوتي يحتفظ بها في اللغة بقدر ما يكون هناك مبرر تزامني لها، وهذه العمليات تتم في إطار ضوابط تتعلق بالبنية والوظيفة والاقتصاد في النظام اللغوي(٣١).

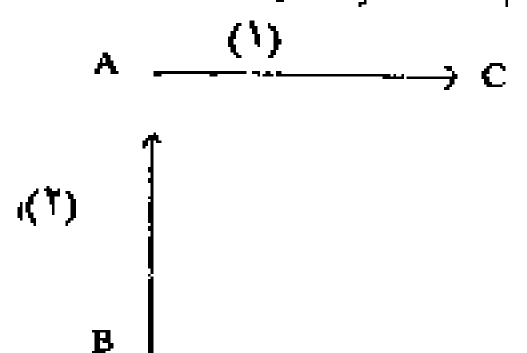
ويذهب البنيويون إلى أن اللغة نظام متكامل بحيث إذا حدثت تغييرات في جانب فمن الممكن أن تترتب عليها تغييرات في جانب آخر، فإذا اندمجت [e] مع [i] في لغة من اللغات فمن المتوقع أن تندمج [o] مع [u]، وإذا كانت اللغة ذات فجوة في جانب من نظامها الفونولوجي فنتوقع أن تملأ هذه الفجوة، وذلك مثل الفجوة التي تقابل الصوت [ʃ] في اللغة

(٣٠) Kiparsky, Historical Linguistics, p.307, Downes, p.195 .

(٣١) Kiparsky, Historical Linguistics, p.310 .

الإنجليزية في القرن الثان عشر والتي ملأها الصوت [3] في القرن التاسع عشر(٣٢)، ومن ثم فإن التحولات الصوتية هذه بمثابة نضال نظام ما في سبيل الوصول إلى الانسجام بين أجزائه، بيد أن هناك شواهد لغوية تقف في طريق تلك الأفكار، فالتعرض للنظم الفونولوجية للغات واللهجات الموجودة في العالم يظهر وجود فجوات فونيمية، فعلى سبيل المثال اللغة الألمانية القياسية ليس فيها/g/ يتناظر مع /x/، وليس هناك في اللغة العربية الفصحى صوت /p/ يتناظر مع صوت /b/.

ويفسر البنائيون التغير الفونولوجي كذلك من خلال فكرة الحيز الصوتي، فالفجوات في الأنماط يتم ملؤها بعمليات يطلقون عليها اسم سحب السلاسل (drag chains)، ودفع السلاسل (push chains)، ووفقاً للنمط الأول من هذه العمليات تتحرك القطعة A خارج النظام، أو تندمج مع القطعة C، وتتحرك القطعة الأخرى Bإلى الموضع الذي كانت تشغله القطعة A، ومن ثم فخروج القطعة A سحب القطعة B إلى حيزها، ويمكن تمثيل عملية سحب السلاسل هذه بالرسم التخطيطي التالي(٣٣):



وفي عمليات دفع السلاسل يحدث أن يغزو صوت من الأصوات الحيز الفونولوجي لصوت آخر بحيث يتحرك الصوت مالك الحيز بعيداً ليطرد صوتاً آخر من مكانه أو من حيزه الفونولوجي وهلم جرا(٣٤).

ويميل الباحثون الذين يؤيدون المبادىء البنائية والوظيفية إلى التفرقة بين علل خارجية للتغير اللغوي وعلل أخرى داخلية، وتكمن العلل الخارجية فيما هو خارج النظام اللغوي مثل

(٣٢) Aitchison, p. 147; King, p. 191.

(٣٣) King, p.194.

(٣٤) Aitchison, p.160.

الاحتكاك بين اللغات، والصراع الطبقي، والانهيار الطبقي، وتقليد الطبقة العليا، والصراع القومي، والاحتياجات المتجددة للمجتمع، والاحتكاك والانتشار الثقافيين، وتتعلق العلل الداخلية بعمليات إعادة الضبط المستمرة التي يحدثها النظام اللغوي كلما تحرك من حالة اتزان أو ما يقرب من حالة الاتزان إلى حالة أخرى، ويرون أن اللغات نظم إشارية ذاتية التنظيم يحكمها المبدآن المتامان «الجهد الأقل»، و «الوضوح الاتصالي»، وهو ما يفسر إنقاص عدد الملامح الفونولوجية المميزة، وزيادة طاقة عمل كل منها إلى الحد الأقصى، مع الأخذ في الاعتبار تحاشي الاختلاط والتشويش، فمثلاً صوت الـ [d] النفسي أوضح من صوت الـ [d]غير النفسي لأن الأول يتميز بكل ما يتميز به الثاني بالإضافة إلى النفسية، وصوت الـ [d] غير النفسي أوضح من [t] لأن الصوت الأول لديه كل ما لدى الصوت الثاني بالإضافة إلى ملمح الجهر، وبافتراض ذكر [d] على نحو متكرر، وبكثرة يميل المتكلمون إلى التساهل في نطقه فيضعف الصوت بحيث يكون [t]، ومن جهة أخرى إذا كان الصوت [t] أقل تكراراً فإن الناس سوف يميلون إلى إنفاق مجهود أكبر في نطقه على نحو غير واع مما يجعله يأخذ شكلاً أكثر وضوحاً عن طريق زيادة ملمح إضافي له مثل النفسية، ويلاحظ أن مثل هذه الأفكار رغم جاذبيتها تشوبها جوانب سلبية لا تنحصر في الدائرية وحدها(٣٥).

بيد أنه من الملاحظ أن تلك المدارس والاتجاهات الحديثة أهملت حقائق هامة. فقد أهملت حقيقة التنوع اللغوي في إطار اللغة الواحدة، ومالت إلى الاعتقاد الخاطىء بأن اللغة موحدة ومتجانسة بين أفراد المجموعة اللغوية الواحدة(٣٦) الأمر الذي دفعها إلى إثارة العديد من القضايا الزائفة مثل: هل التغير الصوتي مفاجىء أم تدريجي؟ وهل التغير الصوتي يحدث أولاً في القدرة أم في الأداء؟ وفي الواقع يجب على من يتصدى للبحث في تغير اللغة أن يضع في ذهنه دائماً التنوع التزامني المشروط اجتماعياً في إطار اللغة الواحدة بينما

---

(٣٥) King, p.200.
(٣٦) ليونز، ج ١، ص ص ٣٤ ـ ٣٨.

يهمل اللغوي الوصفي تلك التنوعات عادة ويركز على المستوى القياسي للغة، والنظر في قضايا التغير اللغوي سيكون أكثر توفيقاً إذا ما وضع في الاعتبار أنه لا يوجد لغة طبيعية ثابتة أو موحدة(٣٧).

ونحن في بحثنا هذا سوف نصنف العلل اللغوية إلى علل بنيوية وأخرى اجتماعية بالإضافة إلى العلل السيكولوجية والفسيولوجية، ونحن إذ نفعل ذلك لا يغيب عنا أن هذه العلل متداخلة ومترابطة، وأن الحدث الواحد قد تتضافر علل عديدة من أجل الدفع به إلى الوجود، وأن العلة الواحدة قد يكون لها أكثر من وجه، فقد تكون العلة الواحدة اجتماعية وبنيوية وسيكولوجية في آن واحد(٣٨).

ويجب أن نضع في اعتبارنا كذلك أن العلل الاجتماعية والبنيوية تعجل بالتغير داخل لغة ما، ويمكن أيضاً أن تبطيء به أو أن تعكسه فتغير اللغة السويدية الذي بدأ في القرن الرابع عشر يتضمن فقدان [d] الأخيرة في كلمات مثل bund (كلب)، blad (ورقة نبات) بيد أن المسح الأخير في ستكهولم أوضح أن هناك أمثلة أقل لحذف [d] في المدنية في السنوات الأخيرة بالمقارنة بما كان منذ خمسين عاماً، ويبدو أن التغير يبطل نفسه، وربما يرجع ذلك إلى انتشار معرفة القراءة والكتابة التي دفعت السويديين أن يوجهوا اهتماماً خاصاً للصيغة المكتوبة للكلمة التي يتضمن هجاؤها /d/، وفي اللغة الإنجليزية الأمريكية هناك بعض اللهجات التي يشيع فيها حذف ثاني الصامتين في نهاية الكلمة مثل: kept، و crept، و swept مما ينتج عنه kep، و crep، و swep بيد أنه إذا ترتب على هذا اضطراب أو تداخل بين صيغة وأخرى نجد أن هذا الحذف لا يتم كما يبدو في كلمات أخرى(٣٩).

---

(٣٧) ليونز، ج ٢، ص ٥١.

(٣٨) لم نتعرض لبعض العلل التي نراها عللا ثانوية مثل علة التصحيف والتحريف انظر: الصفدي، والزبيدي، ص ٢٣٠، ولم نتعرض كذلك لما يطلق عليه التابو (taboo) وأثره في تغيير بعض الكلمات الخاصة بالجنس، والاخراج، والأمراض، والكائنات المؤذية. انظر فندريس ٢٨٠-٢٨٣، وهو ما اطلق عليه ابراهيم أنيس في كتابه دلالة الألفاظ «عامل الابتذال»، ولم نتعرض كذلك للعوامل الجغرافية والديموجرافية نظرا لأنها من الممكن أن يتضمنها التنوع اللغوي والتنوع الاجتماعي انظر على سبيل المثال: Entwistle, p.p. 42-43.

(٣٩) Aitchison, p.39.

الفصل الثاني

العلل البنيوية

(١) إعادة الضبط والاتزان

عندما نذكر «بنية» يأتي إلى الذهن ذلك الاتجاه (البنيوية) الذي تحمس له، وتحمس ضده باحثون كثيراً في النصف الثاني من القرن العشرين، وأول ما نشأ هذا الاتجاه كان في مجال الدراسات اللغوية، حيث ميز سوسير (في المحاضرات التي نشرها تلاميذه بعد وفاته ١٩١٦) بين اللغة والكلام، ونظر إلى اللغة بوصفها نسقاً (من العلامات) عضوياً منظماً، وهذا النسق مستقل في ذاته وإن كان يرتبط بعلاقات عديدة مع أنظمة أخرى خارجية، وتعد الفكرة التي طرحها رد فعل على غلبة الاتجاه التاريخي الذي ساد في القرن التاسع عشر، وعلى الاعتماد على مفهوم التعاقب في التفسير، وعلى الحرص على تجزئة اللغة إلى عناصر منعزلة من أجل البحث عن قوانين التطور الخاصة بكل عنصر منها على حدة، وهو الاتجاه الذي عرف بالذرية(٤٠).

ولكل بنية ملامح أساسية ثلاثة هي: الكلية، والتحول، والتنظيم الذاتي، والمراد بالكلية أن البنية تتكون من عناصر داخلية تربط بينها علاقات محددة تكون بمثابة قوانين مميزة لها، وتعد هذه العلاقات أو القوانين الجانب الأهم في البنية.

والبنية ليست سكونية (استاتيكية)، ولكنها حركية (ديناميكية) تتألف من التحولات الداخلية التي يمكن أن تخضع لعوامل خارجية مثلما تخضع للعوامل الداخلية وهي التي يمثلها السعي إلى التوازن الديناميكي الذي يتناسب مع الحاجات المحددة من قبل علاقات النسق أو تعارضاته وهو المقصود بملمح التحول.

---

(٤٠) انظر: Bynon, p.76; Saussure.

والمراد بالتنظيم الذاتي أن البنية بوصفها نظاماً مستقلاً في وسعها تنظيم نفسها بنفسها مما يحفظ لها وحدتها ويكفل لها المحافظة على ذاتها(٤١).

البنية اللغوية إذن - مثل أي بنية - نظام، يتكون من عناصر يربط بينها علاقات محددة هي القوانين، ومن شأن اي تحول يعرض لعنصر من عناصرها أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى - أو بعضها على الأقل - نظراً للأهمية القصوى التي تحتلها القوانين أو العلاقات بين العناصر في إطار البنية الواحدة بحيث لا يمكن فهم أي عنصر من عناصرها بدون النظر إلى المكان الذي يشغله داخل النظام ككل.

فالجملة «ذهب الطالب إلى الجامعة» يربط بين وحداتها علاقات أفقية تجعل من الترتيب السابق للكلمات جملة صحيحة التركيب، وكذلك الأمر إذا كان ترتيب الكلمات على النحو التالي: إلى الجامعة ذهب الطالب، وذلك بخلاف الترتيب: إلى ذهب الجامعة الطالب على سبيل المثال، والعلاقات الرأسية يمكن أن تربط أيضاً بين الوحدات اللغوية حيث يمكن استبدال كلمات أخرى في الجملة السابقة مثل المدرسة، والمعهد، والمستشفى . . . الخ بكلمة الجامعة ،وثمة تداخل بين العلاقات الرأسية والعلاقات الأفقية فاستبدال كلمة (جاء) بكلمة(ذهب) يوجب تغيراً في بعض العلاقات الأفقية مما يوجب استبدال كلمة (من) بكلمة (إلى) وهذا الاستبدال نوع من العلاقات الرأسية، ويجب الأخذ في الاعتبار أن شبكة العلاقات بين الوحدات اللغوية معقدة للغاية، وهناك أبعاد أخرى خلاف العلاقات الرأسية والأفقية، فهناك علاقات دلالية وأخرى استعمالية (براجماتية) ومعرفية عامة، ولا تقتصر شبكة العلاقات هذه على الربط بين الوحدات اللغوية أو الكلمات بل تربط أيضاً بين العناصر اللغوية أو الوحدات الصوتية.

ومن شأن هذه النظرة أن تنظر إلى التطور التاريخي بوصفه تحولاً في العلاقات البنيوية، أو بعبارة أخرى تتابع أبنية، وليس تطور عناصر مفردة، الأمر الذي يدفع الباحث إلى إعطاء الاعتبارات البنيوية (أو المورفولوجية) قدراً أكبر من الاهتمام، فالبنية كل مكون

(٤١) ابراهيم، ص ص ٣٣ - ٣٥.

من عناصر متماسكة تتبادل الاعتماد فيما بينها، والأهمية التي تعزى لعنصر من العناصر لا تعود إلا إلى العلاقة التي تربط بينه وبين العناصر الأخرى، ومن ثم كان من الواجب كما يرى البنائيون «اكتشاف التلاحم الكامن الذي لا يمكن الكشف عنه بمجرد وصف بسيط لحقائق متغيرة متناثرة لا نظام لها»[٤٢].

ومن العوامل الداخلية الباعثة على التغير اللغوي عمليات إعادة الضبط المستمرة التي يحدثها النظام اللغوي كلما تحرك من حالة اتزان أو ما يقرب من حالة الاتزان إلى حالة أخرى، فاللغة نظام إشاري ذاتي التنظيم يحكمه اتجاهان، الأول: «الجهد الأقل»، والثاني: «الوضوح الاتصالي»، وكل ذلك يدفع باللغة إلى إنقاص عدد الملامح الفونولوجية المميزة[٤٣]، وزيادة عمل كل ملمح منها إلى الدرجة القصوى، مع ضرورة الاحتفاظ بعدد من الملامح المميزة التي تحقق أهداف عدم التشويش والخلط بين الأقوال المختلفة في الظروف السمعية التي تستخدم اللغة عادة في ظلها، وهذا العامل يمكن أن يكون تفسيراً مقبولاً لتغير الضاد، والطاء في اللغة العربية، حيث أن صوت الضاد[٤٤] كما وصفه القدماء كان صعباً للغاية وغريباً، ومن ناحية ثانية كان صوت الطاء[٤٥] مطابقاً لصوت الضاد الذي ننطقه في أيامنا هذه، فمن المفترض أن صوت الضاد تحول إلى ما كان عليه حال صوت الطاء فلم يجد النظام الصوتي بدأً من تغير صوت الطاء بهمسها حتى يتزن النظام الصوتي من

---

(٤٢) كيرزويل، ص ١٠.

(٤٣) انظر ليونز، ج ١، ص ص ١٢٤ - ١٣٤.

(٤٤) يقول سيبويه (٤/٤٣٣) في وصف الضاد: ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد، وفي موضع آخر (٤/٤٣٤-٤٣٥) يجعل سيبويه من الضاد صوتا رخوا. يقول عن أصوات العربية: ومنها الرخوة وهي: الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء.

(٤٥) لم تكن الطاء كما هو الحال اليوم صوتا مهموسا بل كانت صوتا مجهورا الأمر الذي يجعلها متطابقة مع الضاد التي ننطق بها هذه الأيام، فقد جعلها سيبويه (٤/٤٣٤) ضمن الأصوات المجهورة يقول: «فأما المجهورة فالهمزة، والألف، والعين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام والنون، والراء، والطاء، والدال، والزاي، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو فذلك تسعة عشر حرفا».

ناحية، وبما يحقق هدف تحاشي أقوال يمكن أن تختلط في الظروف السمعية التي تستخدم اللغة عادة في ظلها من ناحية أخرى.

وثمة خيوط تنسج فرضية أخرى يمكن أن تكون تفسيراً مقبولاً فيما يتعلق بتغير صوتي الطاء والضاد، فقد كان ثمة تقارب في الصفات الصوتية والمخرج بين صوتي الضاد والظاء لدرجة أن كثيراً من الناس كانوا يخلطون بينهما، الأمر الذي ترتب عليه وجود الكثير من المؤلفات العربية القديمة التي تبحث في قضية الضاد والظاء والتمييز بين الكلمات التي تضم هذين الصوتين[٤٦].

وهذا الاختلاط الذي كان يحدث بين الضاد والظاء أدى إلى تحول الضاد إلى ما هي عليه الآن حتى يتجنب النظام الصوتي التشويش والخلط، وحتى يحقق الوضوح الاتصالي المنشود، الأمر الذي جعل الضاد في موقع الطاء، فلم تجد الأخيرة بدأ من التحول إلى ما هي عليه الآن يفقدها ملمح الجهر.

(٤٦) انظر على سبيل المثال: الصقلي ص ص ١٠٥ ـ ١٠٨.

(٢) الضغوط الداخلية

ليست اللغة أكواماً غير منسقة من المفردات والأبنية والدلالات، ولكنها بنية ذات نظام صارم، تربط العلاقات الأفقية والرأسية بين عناصره المعجمية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، وهذه الأنماط وتلك العلاقات الموجودة في اللغة تعين الإنسان على استخدام لغته، وكذلك الاحتفاظ بها على نحو أقل اجتهاداً، ويعد تنظيم العناصر اللغوية أمراً جوهرياً في اللغة، وإذا كان التغير يلازم اللغة دائماً فإن عمليات إعادة التنظيم يجب أن تتوازى مع التغير بحيث لا يحدث التغير فوضى تعوق اللغة عن أداء وظائفها، والناظر في مفردات لغة من اللغات يرى أن هذه المفردات مصنفة تصنيفاً دلالياً وآخر نظمياً (بالإضافة إلى ما قد يكون من تصنيفات أخرى موازية) فالمفردات تنقسم إلى مجالات بحسب معانيها أو ما تشير إليه، فثمة مجال دلالي خاص بالأشياء الموجودة في العالم يمكن أن يضم كلمات مثل: إنْسان، وحُصان، وبَيْت، وسَيَّارة، وصَخْرة، وعُصْفورة، وسَمَكَة، وقُطْن.. الخ، في مقابل مجال دلالي آخر خاص بالأحداث يمكن أن يضم كلمات مثل: ضَرَب، وقَتَل، وهَدَم، ودَرَس، ويَحْرِق، ويَكْنس، ويأْكل، ويَطِير... الخ، ويقابل كل منها مجالاً دلالياً آخر خاصاً بالمجردات يمكن أن يضم كلمات مثل: شَرَف، وكرامة، وحَنان، وحُبّ، وعَطْف، وقَسْوة، وَرحْمة، وعِزّة.. الخ، ويقابل كل من هذه المجالات الدلالية مجالاً دلالياً رابعاً خاصاً بالروابط يمكن أن يضم كلمات مثل: بِـ، ولِـ، ومَعَ، وكَأَنَّ، ومِثْل، وإلاَّ... الخ[٤٧].

والمجالات الأربعة الرئيسية التي عرضنا لها آنفاً تنقسم إلى مجالات فرعية، لتنقسم

(٤٧) Nida, p.p. 178-186.

تلك المجالات الفرعية بدورها إلى مجالات ثانوية، وتستمر هذه العملية التصنيفية بحيث تكون الكلمات الموجودة في لغة من اللغات في عناقيد أو في مجموعات تشترك في ملامح دلالية(٤٨).

ولا تقتصر الخصائص التي تصنف الكلمات وفقاً لها في مجموعات أو عناقيد على الملامح الدلالية وحدها، فثمة خصائص نظمية يمكن أن تتفاعل مع الخصائص الدلالية لإقامة تصنيفات أخرى موازية أو متداخلة فثمة طائفة للأسماء يمكن أن تضم كلمات مثل طائر، وإنْسان، وحَيَوان، وقِطَار، وسَيَّارة، وصَخْرة. . . الخ، وثمة طائفة للصفات يمكن أن تضم كلمات مثل: ضَرَب، وكَسَر، ويَكْنس، ويَزْرع، ويُحَطِم، ودَرَس. . . الخ، وثمة طائفة للحروف يمكن أن تضم كلما مثل بين، وعَلى، وعَنْ، ولَمْ. . . الخ وهلم جرا.

وتخضع تلك الطوائف من المفردات في إطار اللغة لنظم فرعية في إطار النظام اللغوي الشامل، فمثلاً الأسماء في اللغة العربية قد تلحقها لواحق متعددة (أو علامات إعراب) حسب الحالة الإعرابية تكون عليها في إطار الجملة فقد تلحقها ضمة أو فتحة أو كسرة، وفي أحوال أخرى لأسباب بنيوية أو دلالية قد تلحقها لواحق أخرى مثل الواو والنون، أو الياء والنون، أو الألف والياء والواو، وكذلك الأمر في الأفعال فقد تلحقها لواحق متعددة حسب الحالة الإعرابية التي تكون عليها فقد تلحقها الضمة أو الفتحة، وقد ينتقص منها الحركة القصيرة (الجزم بالسكون والجزم بحذف حرف العلة) أو النون (الجزم بحذف النون) وهلم جرا.

والنظم الفرعية الموجودة في إطار النظام اللغوي الشامل يمكن أن تتنازع في العمل فيما يتعلق ببعض المفردات، الأمر الذي يتسبب في وجود ضغوط داخلية في اتجاه إخضاع بعض المفردات لنظام فرعي دون آخر، وهو ما يتضح في مناقشتنا لظاهرة الممنوع من الصرف في اللغة العربية.

فالممنوع من الصرف في اللغة العربية باب محير، فهناك من النحويين من رأى أن ثمة

(٤٨) palmer, p.p. 22-23.

قاسماً مشتركاً يربط بين تلك الكلمات الممنوعة من الصرف فهي ذات علتين أو علة واحدة تقوم مقام العلتين(٤٩)، وهناك من النحويين من نظر إلى تلك الكلمات على أنها قد سمع عن العرب الفصحاء معاملتها معاملة إعرابية خاصة فحسب، وذهب إلى أن القول بعلتين أو علة واحدة تقوم مقامهما قول فاسد(٥٠) في الوقت الذي يشيع الاضطراب في تلك الكلمات التي تندرج تحت ما أسماه النحاة «الممنوع من الصرف».

وإذا كان باب الممنوع من الصرف كما وصفناه في الفقرة السابقة مثيراً للحيرة والخلاف فضلاً عما يسوده من اضطراب فإننا في هذا القسم سوف نتناوله تناولاً جديداً في ضوء ما سنطلق عليه اسم الضغوط الداخلية، وهي ضغوط نفترض حدوثها نتيجة سعي بعض الأنظمة الفرعية في إطار النظام اللغوي الشامل لأن توسع نطاق عملها في الوقت الذي تسعى فيه بعض الوحدات اللغوية للدخول في بعض الأطر الفرعية كذلك في إطار النظام اللغوي الشامل.

فطائفة الأسماء من المفردات حقها الضمة، والفتحة، والكسرة كلوا حق إعرابية، وحقها التنوين كذلك بالإضافة إلى إمكانية دخول الألف واللام عليها(٥١)، ولكن أحياناً تكون أبنية الاسم في هذه الطائفة أقرب إلى الأفعال، أو غير معتادة في أبنية الأسماء، الأمر الذي قد يكون مغرياً للنظام الفرعي الخاص بالأفعال (في إطار النظام اللغوي الشامل) لأن يمتد عمله إليه فتصبح الكلمة في موضع نزاع بين النظام الفرعي الخاص بالأسماء، والنظام الفرعي الخاص بالأفعال مما قد ينتج عنه غلبة أحدهما، أو استمرار النزاع بحيث نجد كلمة من الكلمات تعامل المعاملة الإعرابية الخاصة بالفعل أحياناً والخاصة بالاسم أحياناً أخرى، ويدعم هذه الفرضية أن الكلمات الممنوعة من الصرف إذا أضيفت أو دخلت عليها الألف واللام كانت مصروفة أي عوملت معاملة الأسماء المتمكنة من الاسمية، ولا يخفى على

---

(٤٩) ابن عصفور، ج ١، ص ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٥٠) انظر: السهيلي، ص ص ١٩ - ٢١

(٥١) هناك سمات أخرى تميز الأسماء انظر: ابن هشام ص ص ١٤ - ٤.

القارىء أن دخول الألف واللام على الكلمة أو إضافتها إلى ما بعدها من الخصائص الدامغة التي تختص بالأسماء، الأمر الذي يزيد من رصيدها من الاسمية.

ويدعم هذه الفرضية كذلك وجود طائفة من الكلمات تكون مصروفة إذا كانت أسماء، وغير مصروفة إذا كانت صفات، ومن الواضح أن الصفة أقرب إلى الفعل، إذ قد تقع مثله مسنداً، أو بعبارة أخرى تقترب الكلمات الصفات من طائفة الكلمات الأفعال، الأمر الذي يدعم أسباب حرمانها من خصائص الأسماء المتمثلة في الجر والتنوين، وفي ذلك يقول سيبويه(٥٢):

«أعلم أن أَفْعَل إذا كان صفة لم ينصرف في معرفة ولا نكرة وذلك لأنها أشبهت الأفعال نحو أذهب وأعلم.

قلت: فما باله لا ينصرف إذا كان صفة وهو نكرة؟ فقال: لأن الصفات أقرب إلى الأفعال فاستثقلوا التنوين فيه كما استثقلوه في الأفعال، وأرادوا أن يكون في الاستثقال كالفعل.

ويقول في موضع آخر(٥٣):

«تقول كل أفعل يكون وصفاً لا تصرفه في معرفة ولا نكرة، وكل أفعل يكون اسماً تصرفه في النكرة. قلتُ: فكيف تصرفه وقد قلت لا تصرفه. قال لأن هذا مثال يمثل به فزعمت أن هذا المثال ما كان عليه من الوصف لم يجر، فإن كان إسماً وليس بوصف جر».

ويمكن التعرض لأقسام الممنوع من الصرف من وجهة النظر هذه على النحو التالي:

١ ـ الأسماء التي لها بنية الفعل خرجت عن المعاملة المقررة للأسماء من قبول للجر والتنوين لتحرم منها نظراً لأن بنيتها تقربها من طائفة الكلمات التي يجري عليها النظام الفرعي الخاص بالأفعال، ولا يحتج أحد بعدم معاملتها معاملة الأفعال في جميع نواحيها إذ إن خصائص أخرى لها تقربها من تلك المنطقة المعجمية التي تعد منطقة نفوذ لعمل النظام

(٥٢) سيبويه، ج ٣، ص ١٩٣.
(٥٣) المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٣.

الفرعي الخاص بالأسماء بل هي أقرب إليها من منطقة نفوذ عمل النظام الفرعي الخاص بالأفعال، ويمكن أن نضم إلى هذه الطائفة الوصف على وزن أفعل مثل أحمر، وأكبر، والأسماء التي على وزن الفعل مثل يزيد ويشكر، والأسماء التي على وزن أفعل مثل أحمد وأكرم . . . الخ .

٢ ـ الأسماء المركبة تركيباً مزجياً خرجت بطبيعة الحال عن أبنية الأسماء الشائعة في اللغة العربية الأمر الذي حرمها من الخصائص الدامغة للأسماء فحرمت من التنوين والجر، وقد كان من الأنسب لهذه الأسماء البناء (وربما كانت كذلك في مرحلة مبكرة) وذلك لما نلاحظه من عدم استساغة إعراب أسماء مركبة مثل: بورتوفيق، ونيويورك، وإسلام إباد . . . الخ ، ونفترض أن معاملة بعض هذه الكلمات في اللغة العربية معاملة الأسماء غير المتمكنة في الاسمية نتيجة طول عهدها في اللغة العربية مما أكسبها بعض خصائص الأسماء وقربها من منطقة نفوذ عمل النظام الخاص بالأسماء.

٣ ـ الأسماء المحكية كان حقها البناء بيد أنه يمكن أن تتحرك هذه الطائفة من الأسماء في اتجاه منطقة نفوذ عمل النظام الفرعي الخاص بالأسماء في إطار النظام اللغوي الشامل إذا ما كانت بنيتها أقرب إلى بنية الأسماء أو إذا ما طال بها العهد أسماء في اللغة العربية، وهذه الفكرة يمكن أن تقرب إلينا التصور الآتي الذي طرحه سيبويه[٥٤] .

«وإن سميت رجلاً ضربوا فيمن قال: أكلوني البراغيث قلت: هذا ضربون قد أقبل، تلحق النون كما تلحقها في أولى لو سميت بها رجلاً من قوله عز وجل «أولي أجنحة». ومن قال: هذا مسلمون في اسم رجل قال: هذا ضربون، ورأيت ضربين، وكذلك يضربون في هذا القول. فإن جعلت النون حرف الإعراب فيمن قال هذا مسلمين قلت هذا ضربين قد جاء. ولو سميت رجلاً: مسلمين على هذه اللغة لقلت: هذا مسلمين، صرفت وأبدلت مكان الواو ياء لأنها قد صارت بمنزلة الأسماء». وما طرحه في موضع آخر[٥٥].

(٥٤) سيبويه، ج ٣، ص ٢٠٩ .

(٥٥) المرجع السابق، ج ٣، ص ٢١٠ .

«وإن سميت رجلاً بضربن أو يضربن، لم تصرفه في هذا، لأنه ليس لـه نظير في الأسماء، لأنك إن جعلت النون علامة للجمع فليس في الكلام مثل جعفر، فلا تصرفه. وإن جعلته علامة للفاعلات حكيته فهو في كلا القولين لا ينصرف».

٤ ـ الأسماء الأعجمية كان حقها البناء (ومن المفترض تبعاً لوجهة النظر التي تصدر عنها أنها كانت كذلك في فترة مبكرة)، ويعضد ذلك ما نراه من أنه من غير المستساغ أن نلحق ضمة أو فتحة أو كسرة بالأسماء الأعجمية مثل جورباتشوف، أو جورج بوش، أو ميتران، فالأصل في تلك الأعلام أن ننطقها كما ينطقها الناس باللغة الأصلية التي وردت فيها وهي على الترتيب: الروسية، والإنجليزية الأمريكية، والفرنسية. بيد أن اقتراب بنية الاسم الأعجمي من أبنية الأسماء في العربية، وكذلك طول عهده في اللغة العربية يدفعانه إلى منطقة نفوذ القانون الفرعي الخاص بالأسماء كإلحاق الفتحة والضمة بها في الحالات الإعرابية، وحرمانها من الكسرة والتنوين، وإزاء طائفة أخرى تتحلى ـ نظراً لطول عهدها ولتطابق أبنيتها مع أبنية الأسماء العرابية ـ بكل خصائص الأسماء، وذلك مثلما ذهب النحاة من أن هند (وأرى أن هند اسم أعجمي لأنه من الثابت معرفة العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام ببلاد الهند) مصروفة بالإضافة إلى نوح ولوط وما كان على شاكلتها[٥٦].

٥ ـ أما الأسماء المختومة بألف التأنيث المقصورة فلا تظهر عليها حركات الإعراب من جهة، ولا يلحقها التنوين من جهة أخرى نظراً لأن إلحاق التنوين يلزمه حذف الألف المقصورة، ونظراً لمكانتها المتميزة حيث إنها وحدة صرفية (مورفيم)، وليست وحدة صوتية (فونيم)، ولزم المحافظة عليها منعها من التنوين، وأما حرمانها من الكسرة فليس إلا بسبب عدم إلحاق أي من علامات الإعراب بها (يذهب النحاة إلى أنها معربة بعلامات إعراب تقديرية)، وعليه فإن هذه الطائفة دخلت الممنوع من الصرف من باب آخر، وربما كان من الأفضل إخراجها منه.

٦ ـ وطائفة الأسماء المختومة بألف التأنيث الممدودة دخلت الممنوع من الصرف عن طريق التشابه الذي يمكن أن يربط بينها وبين الطائفة السابقة، ومن ثم اعترى هذه الطائفة

(٥٦) حسن، ج ٤، ص ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

بعض الاضطراب، فقد جاءت بعض الكلمات منها مجرورة بالكسرة في بعض الشواهد اللغوية[٥٧].

٧ ـ وصيغة منتهى الجموع أو الجمع الذي على وزن مفاعل أو مفاعيل يبدو أنه دخل أيضاً باب الممنوع من الصرف نظراً لعدم تمكنه من الاسمية فيما يتعلق بالبنية، فهي فيما يبدو تند عن الأبنية الشائعة في الأسماء، الأمر الذي جعل انتماءها لطائفة الأسماء موضع جدل من الناحية البنيوية، وهو ما يمكن أن نفهمه من كلام سيبويه[٥٨]: «... وذلك لأنه ليس شيء يكون واحداً يكون على هذا البناء، والواحد أشد تمكناً، وهو الأول، فلما لم يكن هذا من بناء الواحد الذي هو أشد تمكناً (وهو الأول) تركوا صرفه، إذ خرج من بناء الذي هو أشد تمكناً».

وقد وردت نسبة كبيرة للغاية من صيغ منتهى الجموع مجرورة بالكسرة وذلك بخلاف ما قرره النحاة العرب الأمر الذي قد يفسره أن طول عهد هذه الصيغ بالاسمية، وقرب أبنيتها من الأبنية الشائعة في الأسماء في اللغة العربية (أوالفها) يدفعان بها إلى موقع الاسمية المتمكنة أي قبول التنوين والجر، وربما لو تأخر تقعيد اللغة العربية فترة من الزمن لما دخلت هذه الطائفة في الممنوعة من الصرف، إذ إن هذه النسبة الكبيرة المصروفة توضح أنه كان ثمة اتجاه نحو اتصافها بالاسمية المتمكنة[٥٩]،وقد لاحظ بعض النحاة القدماء هذه الظاهرة. يقول السهيلي: «ومع هذا قد صرفه كثير من العرب، وقد جاء في القرآن مصروفاً وغير مصروف»[٦٠].

٨ ـ أما العلم المؤنث وهو الذي عده النحاة العرب ضمن طائفة الممنوع من الصرف فقد كان مذبذباً بين الاسمية الناقصة والاسمية الكاملة، فالشواهد اللغوية تشهد بعدم حسم انتمائه إليها، حيث وردت نسبة كبيرة للغاية (تعادل٤٦/١٦ في عينة من الشواهد

---

(٥٧) أكبر، ص ٤٣٠، والتوني، القضايا الخاصة بتجديد النحو وتيسيره، ص ١٤٢.

(٥٨) سيبويه، ج ٣، ص ٢٢٧.

(٥٩) اكبر، ص ص ٥٢٩ ـ ٥٣٥.

(٦٠) السهيلي، ص ٣٩.

اللغوية) مجرورة بالكسرة[٦١]، والأرجح أن تذبذب هذه الطائفة يرجع إلى أنه يكثر فيها ألفاظ دالة على أسماء البلاد، وأسماء القبائل وهي أعجمية الأصل، وكثير من الأعلام أعجمية كذلك، فمن الواضح أن الكلمات الدالة على البلاد والقبائل قديمة، ويمكن أن ترجع إلى لغات سابقة على اللغة العربية (مثلما نرى في كثير من أسماء القرى والمدن والأمصار حتى الآن) الأمر الذي يجعل أبنيتها مختلفة عما يشيع في أبنية الأسماء في اللغة العربية، ولكن نظراً لطول عهدها فيها بالإضافة إلى إمكانية أن تدخل أبنيتها في إطار أبنية الأسماء العربية وجدنا كثيراً منها جاء مصروفاً أو متمكناً من الاسمية، ولو تأخر التقعيد النحوي للعربية لكان من الممكن أن نجد هذه الأسماء وقد صرفت تماماً. أي عوملت معاملة الأسماء المتمكنة تماماً من الاسمية، ويمكن أن تعد هذه النسبة الكبيرة من الشواهد اللغوية التي تظهر فيها هذه الطائفة من الأسماء مجرورة بالكسرة اتجاهاً نحو دخولها في منطقة نفوذ عمل النظام الفرعي الخاص بالأسماء[٦٢].

٩ ـ وقد دخلت الأسماء والصفات المختومة بالألف والنون إطار المنع من الصرف من باب آخر، فهي أولاً محرومة من التنوين نظراً لأن آخرها نون فلا يستساغ تكرار النون، وشائع في اللغات الأخرى حذف التكرار[٦٣] «في اللغة الإنجليزية الحديثة England منحدرة من الصيغة الأقدم Engla—Land في اللغة الإنجليزية القديمة»، ومن ثم فإن الاتجاه الأقوى يكون حرمانها من التنوين، أما حرمان هذه الطائفة من الكسرة فقد كان لسبب مختلف فإلحاق الكسرة بها قد يجعلها تلتبس بالمثنى.

١٠ ـ وطائفة الأسماء والصفات المعدولة مثل عمر وأُخَر وهُبَل . . . الخ التي عدها النحاة ضمن الأسماء الممنوعة من الصرف يتضح من كلمة «معدولة» أنه قد عدل بها عن البنية المعتادة، فاهتز انتماؤها إلى الاسمية، وفي ذلك يقول صاحب شرح التصريح على التوضيح: «فإن الغالب في الأعلام النقل فعمر مثلاً معدول عن عامر، فإن عامر ثابت في

(٦١) التوني، قضايا تجديد النحو وتيسيره، ص ١٤٩.
(٦٢) المرجع السابق، ص ١٤٩.
(٦٣) ليونز، ج ٢، ج ٢، ص ٢٢٤.

الآحاد النكرات بخلاف عمر مع أن صيغة فعل قد كثر فيها العدل التحقيقي كغُدَر وفسق فإنهما معدولان عن غادر وفاسق، وكجمع وكتع فإنهما معدولان عن جماوات وكتماوات وكأخر فإنها معدولة عن آخر بفتح الخاء والمد[٦٤]، ونجد من الشواهد اللغوية أيضاً فيما يتعلق بهذه الطائفة ما جاء مصروفاً[٦٥] الأمر الذي يشير إلى أنه كان هناك اتجاه لادخال هذه الطائفة ضمن الأسماء المتمكنة التي تقبل الجر والتنوين، وإنه لو تأخر التقعيد للغة العربية لكان من المحتمل ألا نجد هذه الطائفة في إطار الممنوع من الصرف.

وهكذا يمكن أن يفسر ظاهرة الممنوع من الصرف تعارضُ مجموعات من العلاقات في إطار البنية اللغوية، أوتنازع أنظمة فرعية في مناطق نفوذ في إطار النظام اللغوي الشامل، فثمة نظام يطلب طائفة معينة من الوحدات ينازعه فيها نظام فرعي آخر، الأمر الذي قد يترتب عليه وقوع هذه الطائفة في مكان وسط لا تخضع فيه بشكل تام لأحدهما، وبعبارة أخرى قد يترتب على ذلك الجدل وجود ظواهر متميزة لا تلبث أن تأخذ مسارها في الاندماج في أطر أشمل، وهكذا يكون الممنوع من الصرف صورة من صور التغير اللغوي الذي لم يستقر في الفترة التي أخذ النحاة يقعدون للعربية مما أظهر كل ذلك التذبذب الذي هو من أبرز خصائص التغير اللغوي.

---

(٦٤) الأزهري، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٦٥) التوني، القضايا الخاصة بتجديد النحو وتيسيره، ص ١٥٤.

(٣) التغييرات العلاجية

وهناك من شواهد التغير اللغوي ما يؤيد أن البنية اللغوية تتكون من عناصر يربط بينها علاقات محددة (على شكل نظام محدد أو نسق) ومن شأن أي تحول يعرض لعنصر من عناصرها أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى أو بعضها على الأقل، ففقدان الصوامت في نهاية الكلمات في اللغة الفرنسية دفع إلى تغير آخر، ففي اللغة الفرنسية يكون نطق المفرد chat (قطة) مثل نطق الجمع chats (قطط) بحيث لا يمكن تمييز الواحد عن الجمع من نطقهما فقط. الأمر الذي أدى إلى اعتماد اللغة الفرنسية على الأدوات(le، la، les) - التي توضع في مقدمة الكلمة المعينة - في التمييز بين المفرد والجمع، وأدى أيضاً إلى وجوب ذكر الأداة في اللغة الفرنسية حيث لا يمكن لمتكلم اللغة الفرنسية ألا يذكر الأداة في اللغة الفرنسية، بخلاف المتكلم باللغة الإنجليزية الذي يمكنه عدم ذكر الأداة قبل الاسم نظراً لأن الأداة وحدها هي التي تحمل العلامة الفارقة بين المفرد والجمع في اللغة الفرنسية، وعليه فلم تعد علامة الجمع في اللغة الفرنسية في نهاية الكلمة ولكن في بدايتها(٦٦).

وفي نيوزلندة نجد في اللغة البولينزية (Polynesian) أن فقدان نهايات الكلمات قد أدى إلى تغير في الطريقة التي تصاغ بها الجمل المبنية للمجهول (passives) فقد كانت الكلمات فيها في فترة سابقة تنتهي بالصوامت، وكانت الجملة المبنية للمجهول تصاغ بإضافة (ia -) إلى نهاية الفعل، فعلى سبيل المثال كلمة awhit (يحب) تبنى للمجهول بإضافة (ia -) لتصبح awhitia، وكلمة hopuk (يمسك) تبنى للمجهول بإضافة (ia -) إليها لتصبح (hopukia)، وكلمة maur (يتزوج) تبنى للمجهول بإضافة (ia -) إليها لتصبح (mauria)، وبفقدان نهايات الكلمات السابقة صارت الصيغة المبنية للمعلوم القياسية للأفعال السابقة هي كالتالي: (mau- hopu- awhi) بينما لم تتغير الصيغة المبنية للمجهول، الأمر الذي جعل المتكلمين يشعرون باضطراب القاعدة التي يتم وفقاً لها التحول من البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول، ويرون أن هناك تشكيلة من النهايات المختلفة فمرة يضاف (tia -) إلى الفعل

(٦٦) يمكن أن يعد هذا شاهداً على إعادة الجيل اللاحق خلق لغته بناء على ما يسمعه من الجيل السابق.

المبني للمعلوم، ومرة يضاف (kia -)، ومرة ثالثة يضاف (ria -)... الخ وبناء عليه يعيد المتكلمون تحليل البناء للمجهول كالآتي(٦٧):

awhi - tia/hopu - kia/uau - ria ... الخ.

ويؤدي الاضطراب الجديد إلى تقوية اتجاه استخدام (tia -) بوصفها نهاية قياسية للبناء للمجهول الأمر الذي ينبيء باحتمال أن تحل (tia -) محل النهايات الأخرى(٦٨).

ومن الملاحظ أن اللغات عموماً تفضل أن تكون عناصرها الصوتية منظمة، وتختار كل لغة مجموعة من الأصوات التي يمكن أن يصدرها الناس، ولا تكون الأصوات المختارة موضع اختيار عشوائي فهي تميل إلى أن تكون منظمة بطرق يمكن التنبؤ بها فهي تميل إلى أن ترتب بصفة عامة في مجموعات ثنائية أو ثلاثية(٦٩).

ومن الأنماط الثنائية الشائعة تناظر الأصوات المهموسة مع الأصوات المجهورة، وعليه نجد في لغات كثيرة صوت p مقترناً بـ b، وصوت t مقترناً بصوت d، وصوت k مقترناً بصوت g وهلم جرا، وتتماثل هذه الأزواج في طريقة نطقها باستثناء ملمح واحد هو الجهر والهمس.

مهموس	[p]	[T]	[k]
مجهور	[b]	[d]	[g]

وفي حالة وجود مجموعة أصوات لا تتمتع بالتنظيم تميل اللغة إلى إعادة تنظيمها بالحذف أو الإضافة (في حالة وجود فجوة في البنية اللغوية)(٧٠) فإذا تدبرنا مجموعة الأصوات الاحتكاكية في اللغة الإنجليزية نجد أنها كانت في القرن الثامن عشر على النحو التالي:

مهموس	[ℒ]	[θ]	[s]	[ʃ]	[h]
مجهور	[v]	[ð]	[z]		

(٦٧) Aitchison, P. 143.

(٦٨) Aitchison, P.143.

(٦٩) يمكن أن تمثل المجموعات الثلاثية في اللغة العربية بالمجموعة ث، ذ، ظ، والمجموعة س، ص، ز.

(٧٠) King. P.191.

فقد كانت هناك ثمانية أصوات احتكاكية ستة منها مرتبة في أزواج ثنائية واثنان منها: [ʃ]، و[h] مفردين، ونلاحظ أن هذه الأصوات قد أصابها من التغيرات ما يدفعها في اتجاه التصفيف والتصنيف الثنائيين.

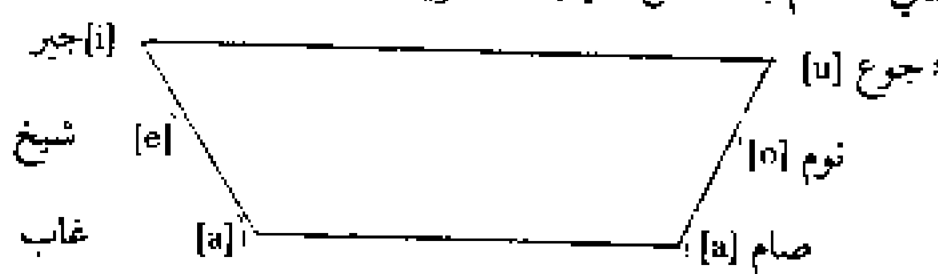
وتتحقق هذه التغيرات بالإضافة والحذف فقد أضيف إلى تلك المجموعة صوت جديد [ʒ] ليكون نظيراً مجهوراً لـ [ʃ]، وهو ذلك الصوت الموجود في كلمات مثل pleasure [pleʒə] (سرور)، وقد استحدث هذا الصوت على مراحل فقد كانت مثل هذه الكلمات تنطق في الأصل كما لو كانت منتهية بـ [-zer]، ثم تغير نطقها الى [-zyer]، ثم تغير نطق [zy] في النطق السريع الى [ʒ]، ثم قبلت بعد ذلك بوصفها النطق القياسي او المعياري، ودعم دخول هذا الصوت في المجموعة الاحتكاكية وجوده في كلمات مقترضة من اللغة الفرنسية مثل: beige [beiʒ] (بيج)، و rouge [ru:ʒ] (مستحضر تجميلي)، واذا لم يكن الأمر مهيئا لقبول هذا الصوت الاحتكاكي الفرنسي كان من المرجح تعديله بحيث يتناسب مع صوت آخر موجود كما يحدث عادة في الكلمات المقترضة.(٧١).

واذا كان التغير فيما يتعلق بالصوت الاحتكاكي المهموس [ʃ] هو إضافة صوت مستحدث هو [ʒ] الصوت الاحتكاكي المجهور. فإنه فيما يتعلق بالصوت الاحتكاكي المهموس [h] فإن التغير في اتجاه حذفه، وقد فقد هذا الصوت بالفعل في عدد من اللهجات البريطانية مثل اللهجة اللندنية المحلية منذ فترة طويلة، وساعد على هذا الاتجاه أن هذا الصوت ضعيف نسبياً كذلك.

ولا تقتصر ظاهرة تصفيف الانماط الصوتية وتصنيفها إلى ازواج ثنائية على الصوامت وحدها، فتميل اللغة إلى تنظيم الحركات في أزواج ثنائية كذلك، فتنقسم الحركات إلى حركات أمامية وخلفية. والفارق المميز الرئيسي بين الحركات الامامية والحركات الخلفية أن الجزء الأعلى من اللسان في أقصى الأمام نسبياً عند النطق بالحركات الأمامية بينما يكون الجزء الأعلى من اللسان في أقصى الخلف نسبياً، وبالإضافة إلى الحركات المرتفعة، وهي التي يكون الجزء الأعلى من اللسان أثناء النطق بها

(٧١) Aitchison, P.P. 146-147

مرتفعاً نسبياً، والحركات المنخفضة وهي التي يكون الجزء الأعلى من اللسان أثناء النطق بها منخفضاً نسبياً. هناك أيضا الحركات المتوسطة التي تقع فيها بين موضعي الحركات المرتفعة والمنخفضة. ومن الملاحظ أن الحركات في إطار اللغة الواحدة تميل إلى أن تصطف في أزواج ثنائية، فعلى سبيل المثال في اللغة العربية نلاحظ وجود ثلاثة أزواج من الحركات زوج منها منخفض، وآخر متوسط، وثالث مرتفع يمكن توضيحها بالرسم التالي المدعم بأمثلة من اللهجة القاهرية:

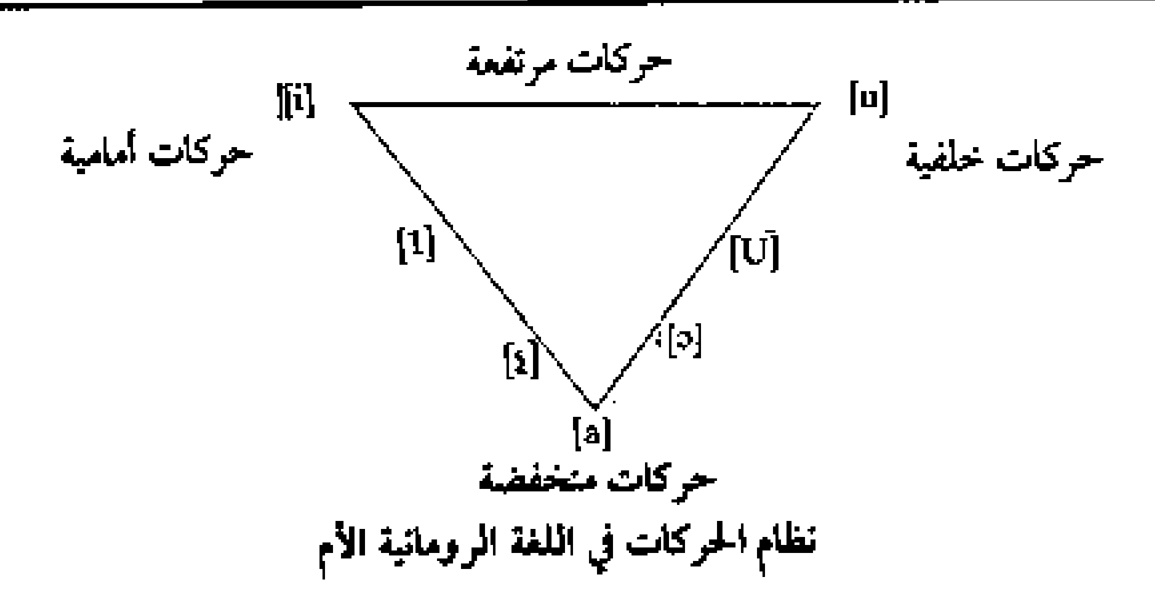


ويلاحظ أنه في كل اللغات تكون الحركات مصفوفة في ثنائيات، وتكون التغيرات التي تصيب نظامها تغيرات متناسقة، وتشبه آتشيسون (Aitchison) التغيرات التي تصيب الحركات في لغة ما بما يفعله أحد أفراد الشرطة السرية في تعقبه لأحد المشتبه فيهم، فالمشتبه فيه يعبر الشارع وهكذا يفعل الشرطي السري رغم أنه يحافظ على أن يكون على الجانب الآخر من الطريق، وعلى هذا النحو فهما لا يفترقان رغم أنهما لا يلتقيان أيضا، وعلى هذا النحو إذا تحرك أحد الأزواج فإن الزوج الآخر من المرجح أن يحذو حذوه. فعلى سبيل المثال إذا تحركت [e] لتقترب من [i]فإن [o]سوف تحذو حذوها لتقترب من [u] (٧٢).

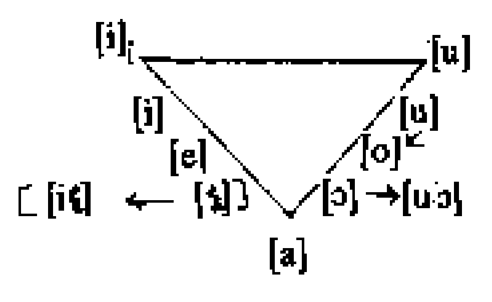
والناظر في التغيرات التي أصابت نظام الحركات في اللغة الرومانية الأم ليصبح نظاما للحركات في اللغة الإيطالية واللغة السردانية وغيرها من لغات الفرع الروماني يرى كيف استطاعت أن تحافظ كل منها على التوازي بين الحركات الأمامية والحركات الخلفية فقد صاحب التغير الذي أصاب نظام الحركات في اللغة الرومانية الأم إعادة تصفيف لها بحيث أصبحت في النهاية مصنفة في أزواج ثنائية كذلك وهو ما توضحه الأشكال التالية المأخوذة من آتشيسون (٧٣).

(٧٢) King, P. 191.

(٧٣) Aitchison, P. 151.



نظام الحركات في اللغة الرومانية الأم



نظام الحركات في اللغة الإيطالية.

[i] [u] [i] [u] [e] [o] [ɛ] [ɔ] [a]

نظام الحركات في اللغة السردانية.

وهو ما يفسر تحول [pira] (كمثرى) في اللغــة الرومــانية الأم إلى [pera]في اللغــة الإيطالية، و [pira] في اللغة السـردانية، وتحول [gula](حلق) في اللغة الرومانية الأم إلى [gola] في اللغة الإيطالية، و [gula]في اللغة السـردانية، وتحول [mɪle](عســل) في اللغة الرومانية الأم إلى [miɛle] في اللغة الإيطالية، و [mele]في اللغة السـردانية، وتحول [dɔlo] (أسى) في اللغة الرومانية الأم إلى [duɔlo] في اللغة الايطالية، و [dolo]في اللغة السـردانية.(٧٤)

ويعد كذلك من قبيل إعادة التصفيف والتصنيف النظامي ما اشتكى منه نحاة اللغة الانجليزية في القرن السابع عشر من أن الناس لا يدركون أن chicken كان جمعا لـ chick وما اشتكى منه حديثا بعض الكتاب من أن الناس يستخدمون كلمة media على أنها اسم مفرد رغم أنها جمع مفرده medium (متوسط)، وبعبارة أخرى فإن الناس يعاملون أسماء الجمع التي لا تنتهي بالنهاية [s] معاملة المفرد، ويقابل هذا الاتجاه اتجاه آخر حيث يميل الناس إلى

(٧٤) Aitchison, P. 151.

معـاملة الكلمات المنتهية بـ [s] معـاملة الجمع وكـانت كلمة peaseفي الأصـل في اللغـة الانجليزية مفردة بيد أنها نظرا لوجود [s] عاملها الناس معاملة الجمع واخترعوا منها كلمة مفردة جديدة هي pea (حبة بازلاء).

وفيما يتعلق بصيغ الجمع كانت في اللغة الانجليزية القديمة تشكيلة من النهايـات المختلفة التي تعبر عن صيغة الجمع، وأخذت هذه التشكيلة تضيق عبر فترة طويلة من الزمن بحيث انحصرت في (s)، و (n). ففي عصر شكسبير نجد صيغا مثل eyen(عيون) التي صارت الآن eyes، و shooen(أحذية) وهي التي صارت اليوم shoes، وتجد كـذلك housen (منازل) وهي التي صارت اليوم houses، وبمرور الـزمن ونتيجة عمليـات اعادة التصنيف والترتيب صارت صيغة الجمع المعتـادة الآن في اللغة الانجليـزية تنتهي بـ [s] باستثناء كلمات قليلة مثل men (رجال)، و sheep(خراف)، و oxen(ثيران). (٧٥).

---

(٧٥) ibid, P. 152

(٤) تسلل العناصر الأجنبية

تسلل العناصر الأجنبية إلى اللغة موضع التغير بسبب تأثير لغة المنشأ (substratum) فعندما يذهب المهاجرون إلى منطقة جديدة، أو عندما يتعلم السكان الأصليون لغة غزاة وصلوا حديثا، فإنهم يتعلمون لغتهم الجديدة على نحو غير متقن، وتنتقل العيوب الخفية في استخدامهم إلى أطفالهم وإلى الناس المحيطين بهم الأمر الذي يؤدي إلى تغير اللغة، وقد أدرك العلماء العرب قديما تلك الحقيقة وفق ملاحظاتهم لاستخدامات القوميات المختلفة للغة العربية. يقول ابن حزم: «وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة، وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول مهمدا إذا أراد أن يقول محمدا. ومثل هذا كثير». [٧٦]

وتبعا لهذه النظرة فإن ما يعرف بانجليزية السود، في نيويورك نشأت عندما جلب الافارقة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عبيدا، وكانوا بطبيعة الحال يتكلمون بإحدى اللغات الافريقية، وعندما تعلموا اللغة الانجليزية نقلوا إليها ملامح من لغتهم الأصلية، بيد أن اللغة المتبناة لا تتغير دائما في اتجاه اللغة الأساس (substratum language)، فالمهاجرون يميلون أحيانا إلى المبالغة في تصويب ما يشعرون بأنه لكنة معينة، الأمر الذي لا يؤدي إلى التحول بعيدا عن اللغة الأساس فحسب بل يؤدي أيضا إلى تغيير اللغة المتبناة[٧٧].

ويحدث تسلل العناصر أيضا في حالة احتكاك لغتين مختلفتين[٧٨]، وهو ما يحدث عادة على الحدود القومية، وفي الغالب يكون سكان مثل هذه المناطق ثنائيي اللغة، أو قد يكون لديهم معلومات كافية عن اللغة أو اللغات الأخرى في المنطقة بالإضافة إلى لغتهم الأصلية، وفي هذه الحالة تميل اللغات إلى أن تتأثر الواحدة منها بالأخرى بطرق مختلفة،

---

(٧٦) ابن حزم، ج ١ ص ٣٢، وانظر أمثلة أخرى لأثر لغة المنشأ (الأساس اللغوي) عند: Saussure, P. 151.

(٧٧) Aitchison, P. 117.

(٧٨) Bynon, P.P. 216 - 243.

والاحتكاك الذي يمتد فترة أطول يكون ذا تأثير أعمق، ويتضح التأثير العميق في قرية kup-war التي تقع على بعد ٢٠٠ ميل تقريبا جنوب شرق بومباي، ويقطن هذه القرية حوالي ثلاثة الاف من السكان ويستخدم فيها لغات ثلاث هي: الـKannada والـ urdu والmarath وهذه اللغات مختلفة وتتوزع على أسرتين لغويتين، وكانت في حالة احتكاك لمدة تزيد على ستة قرون (أكثر السكان ثنائيي أو ثلاثيي اللغة) الأمر الذي جعل البنية النظمية في اللغات الثلاث واحدة بحيث لو ترجمت جملة واحدة إلى اللغات الثلاث فسوف تتطابق الجمل الثلاث باللغات الثلاث في عدد المفردات، وترتيبها في إطار الجملة، لكن من الملاحظ أيضا وبشكل غير مألوف في حالات التغير اللغوي أن الناس في هذه القرية يحافظون على تميز المفردات الخاصة بكل لغة ازاء الأشياء الواحدة وذلك لشعورهم بالحاجة إلى التأكيد على هويتهم العرقية. (٧٩).

وتسلل العنصار الأجنبية تشمل كل جوانب البنية اللغوية، ويجب أن ينظر إليه بوصفه عاملا هاما من عوامل التغير اللغوي، وهذا التسلل ليس عشوائيا فاللغة لا تكون قادرة على قبول عناصر أجنبية إلا إذا كانت مهيأة لقبولها، فالمفردات التي تدخل لغة من اللغات ينبغي أن يكون من الممكن فصلها بسهولة عن لغتها الأصلية، وينبغي أيضا ألا تؤثر في بنية اللغة موضع التغيير، وذلك مثل الألفاظ الدالة على أنواع الطعام مثل جاتو وموتيه وتوست وهامبورجر في اللهجة العربية القاهرية، والألفاظ الدالة على الملابس الحديثة مثل سويتر، وبنطلون، وجاكيت، ويبدو أنه ليس هناك حد معين لعدد الألفاظ التي يمكن فصلها عن لغة مانحة.

والعناصر الأجنبية التي تتعلق بالبنية النظمية لا يمكن أن تتسلل إلى لغة أخرى إلا إذا كانت تتناظر إلى حد ما مع تلك الجوانب في تلك اللغة، فحيث تتجاور اللغتان الفرنسية والألمانية نجد أن اللغة الفرنسية تقترض ابنية نظمية ألمانية معينة فهي مثلا تضع الصفات

---

(٧٩) Aitchison, P. 118 .

بعد الأسماء كما في: un visage blance وتعني حرفيا (وجه أبيض)، بيد أنها على الحدود الفرنسية الألمانية نجدها تتبنى الترتيب الألماني حيث تقع الصفة قبل الإسم فنرى هناك un blance visage وتعني حرفيا (أبيض وجه)، وهذا التسلل يحتمل أن يكون قد انتشر بسبب وجود عدد من الصفات في اللغة الفرنسية تأتي قبل الإسم مثل le petit garçon (ولد صغير) و la jolie femme (امرأة جميلة) [٨٠].

(٨٠) ibid, P. 121

الفصل الثالث

العلل الإجتماعية

سنتناول في هذا الفصل العلل الإجتماعية التي تقبع وراء التغير اللغوي، ويمكن أن يرى القارىء أن في بعض هذه العلل عناصر تتعلق بالجانب البنيوي أو السيكولوجي، وهو ما نوافق القارىء عليه، وقد سبق أن ذكرنا أن العلل اللغوية وإن كان من الممكن تصنيفها إلى علل بنيوية، واجتماعية، وسيكولوجية، وفسيولوجية فإنه لا يغيب عنا ـ ونحن نفعل ذلك ـ أن هذه العلل متداخلة ومترابطة وأن الحدث الواحد قد تتضافر علل عديدة من أجل الدفع به إلى الوجود، وأن العلة الواحدة قد يكون لها أكثر من وجه فقد تكون العلة الواحدة اجتماعية وبنيوية وسيكولوجية في آن واحد، ولكننا نضعها ضمن الطائفة التي نرجح أن ارتباطها بها أشد من ارتباطها بالطوائف الأخرى.

(١) الحاجة الاجتماعية والاقتراض اللغوي

يعاني المجتمع في بعض مراحل تطوره من نقص في المفردات الدالة على أشياء باتت موجودة فيه، أو في مجتمع آخر تعرف عليه، الأمر الذي يدفع بالمجتمع الأول إلى اقتراض الكلمات الدالة على تلك الأشياء من لغة المجتمع الثاني، وعندما تقترض لغة كلمات من لغة أخرى فإن اللغة الأولى لا تنقل تلك الكلمات نقلا مباشرا، ولكنها تحدث بها من التغيرات بما يتفق مع البنية اللغوية لها، وعليه فإن اقتراض لغتنا العربية كلمات أوربية صاحبه محاولة وضع هذه الكلمات في قالب عربي، ووفقا لتلك العوامل نقل رفاعة الطهطاوي [٨١]. إلى اللغة العربية من اللغة الفرنسية الكلمات الآتية: journal و la charte و institut التي صارت في اللغة العربية كما يلي: جورنال، والشرطة، والانسطيطوت على الترتيب، وتابع الطهطاوي كثير من أبناء العربية، فدخلت اللغة العربية على أيديهم كلمات أوربية كثيرة كان أبناء العربية في حاجة إليها للتعبير عن أشياء دخلت حياتهم الحديثة من أوربا على وجه

(٨١) حجازي، اللغة العربية عبر القرون، ص ص ٨١ ـ ٨٢.

الخصوص، ومن هذه الكلمات: بنطلون، وجيبة، وبلوزة، وتايير، وبدلة، وشورت، وشوز، وتلفيزيون، وراديو، وكافتيريا، وكازينو، وتليفون، وكونسرفتورا، ومليون، ومليار، وتريليون، وسينما، وكلمات أخرى في العلوم المختلفة مثل: السيكولوجيا، والفونيم، والمورفيم، والمورفولوجيا، والفونولوجيا، والبيولوجيا، والبكترولوجيا وعلم جرا. (٨٢).

وقد عوملت تلك الكلمات معاملة الكلمات الأصلية في اللغة العربية، فوجدنا صيغ جمع لها قياسا على صيغ الجمع في اللغة العربية مثل: بنطلونات، وكازينوهات، وتليفونات، وتليفزيونات، ومليارات، وملايين، وفونيمات، ومورفيمات... الخ، وقد صيغت بعض الكلمات العربية لتحل محل بعض هذه الكلمات المقترضة مثل: دار الخيالة بدلا من السينما، والمذياع بدلا من الراديو، والهاتف بدلا من التليفون، والمذياع المرئي بدلا من التليفزيون بيد أن بعض هذه الصيغ لم تلق ترحيبا وانتشارا من قبل المتكلمين بالعربية واستمرت الصيغ المقترضة متداولة على الألسنة.

وقد مارست العربية الاقتراض قديما عندما جابه العرب في أول نهضتهم الحضارة اليونانية الأكثر تقدما، وحصل الاحتكاك والتبادل الثقافي، فاضطروا إلى الأخذ من اللغة اليونانية عن طريق الاقتراض، وذلك كما يتضح في استخدام الفلاسفة العرب قديما المصطلحات الآتية: الأناليطيقا (التحليل) Analytic والأبود قطيقي (الإيضاح) Apodectic والديالقطيقي (الجدل) Dialectic والسوفسطيقي (المغالطة) Sophisticism والريطوريقي (الخطابة) Rhetoric والبيوطيقي (الشعر) Poetry والسولوجسموس (القياس) Syllogism وارثماطيقي (الحساب) Arithmatic واسطرنوميا (الفلك) Astronomy وارمانوطيقا (التناغم) Harmonic والميتافيزيقا (مابعد الطبيعة - Metaphysics(٨٣).

(٨٢) انظر أمثلة أخرى في: أنيس، دلالة الألفاظ، ص ص ١٤٥ - ١٥١.
(٨٣) الحاج، ص ٢٧٤، وانظر أيضاً: أبو مغلي.

ويمكن أن يعد الاقتراض معيارا للقوة الحضارية والنفوذ المادي والمعنوي للغة المقترضة واللغة المقترضة على حد سواء، ففي العصر الحديث وفي ظل التفوق الحضاري لأوربا اقترضت العربية كثيرا من المفردات من اللغات الأوربية، وقد حدث في فترات سابقة عكس ذلك، ففي تلك الفترة التي كانت الحضارة العربية أكثر تفوقا اقترضت اللغات الأوربية من اللغة العربية كثيرا من المفردات، ومن ثم نجد كثيرا من الكلمات العربية في اللغة الانجليزية على سبيل المثال مع الأخذ في الاعتبار ان اللغة المقترضة تشوه المفردات المقترضة أو تحرفها بما يتفق مع بنيتها اللغوية.

ومن الكلمات العربية التي نجدها في اللغة الانجليزية: admiral (أمير البحر)، و algebra (الجبر)، و ardeb(الأردب)، و atabal(الطبل)، و attar(عطر)، و camise (قميص)، و caliph (خليفة)، و cotton(قطن)، و jar(جرة)، و Kohl(كحل)، و mufti (مفتي)، و muslim (مسلم)، و saloop(سحلب)، و shadoof(شادوف)، و zero وهي الكلمة التي أخذتها اللغة الانجليزية من الكلمة اللاتينية zephirum وكانت قد أخذتها اللاتينية من الكلمة العربية (صفر) و sugar (سكر) وهلم جرا [٨٤].

(٨٤) الحاج، ص ٢٧٥، والجندي، ص ص ٨٩ ـ ٩٧، وانظر أيضاً: البعلبكي (الملحق ص ص ١٠١ ـ ١١٢) تحت عنوان: ألفاظ انكليزية ذات أصل عربي.

(٢) الانتشار الثقافي والترجمة

يلعب الانتشار الثقافي[٨٥] ومعه الترجمة دوراً مهماً في التغير اللغوي، فالناظر في أحد المعاجم العربية القديمة يجد أن كلمات كثيرة مثل: لسان، ولغة، ولهجة، ولكنة هي على النحو التالي:

١ ـ اللسان: «المِقْوَل ويؤنث ج أَلْسِنَةٌ وأَلْسُنٌ ولُسُنٌ، واللغة والرسالة والمتكلم عن القوم وأرْضٌ بظهر الكوفة وشاعرٌ فَارِسٌ مِنْقَرِيٌ ومن الميزان عذَبَتُه ولِسانُ الحَمَلِ نَباتٌ أصله يُمْضَغ لِوَجَعِ السنّ وَوَرَقَةٌ قَابِضٌ مُجَفِّف نافعٌ ضِمادُه للقُروح الخبيثة ولِدَاءِ الفيل والنار الفارسيّة والنَّمْلة والشَّرَي وقَطْع سَيلان الدم وَعضّة الكلب وَحَرق النار والخنازير وَوَرَمِ اللَّوْزَتين وغير ذلك، ولِسانُ الثور نَباتٌ مُفَرِّح جداً مُلَيِّنٌ يخرج المِرّة الصَّفْراء نافع للخَفَقان ولِسانُ العصافير ثَمر شجر الدردار باهِيٌّ جداً نافع من وجَعِ الخاصِرَة والخَفَقان مُفَتِّتٌ للحصى ولِسانُ الكلب نباتٌ له بِزْر دَقِيق اصْهَبُ وله أَصْل أبيض ذو شُعَب مُتَشَبِّكة يُدْمِلُ القُروحِ ويَنْفَعُ الطِحالَ ولِسانُ السَّبع نَبات شُرْبُ ماء مَطْبُوخِه نافعٌ للحصاة وأَلْسَنه قَوْلَه أَبْلَغَهُ واللِسنُ بالكسر الكلامُ واللّغَة واللِسانُ ومُحَرَّكاً الفَصاحة لَسِنَ كَفَرِحَ فهو لَسِنٌ وأَلْسَنُ ولَسَنَهُ أَخَذَهُ بلسانه وَغَلَبَهُ في المُلاَسنة للمُناطَقَة والنَعْل خَرَط صَدْرَها ودَقَّق أعلاها والجارِيَة تَنَاول لِسانَها تَرَشُّفاً والعَقْرَبُ لَدَغَتْ واللّسن كَكَتِف ومُعَظَّم ما جُعل طرفه كطرف اللسان والمَلْسُون الكَذاب وأَلْسَنه فصيلاً أعاره إيّاه لِيُلقيه على ناقته فَتَدُرّ عليه فَيَحْلُبها كأنّه أعاره لِسان فصيله وتَلَسَّن الفَصيلُ فُعِلَ به ذلك والمِلْسان كُزنَّار عُشْبَةٌ ولَسْنُونَة ع وكمِنبر الحَجَرُ يُجْعَلُ على باب البَيْت الذي يُبْنى للضَبُع والإِلْسان الإِبْلاغ للرسالة السني فلاناً وأَلْسِن لي فلاناً كذا وكذا أي أَبْلِغ لي والمُتَلَسِّنة من الإبل الخَلِيَّة وظَهْرُ الكوفة كان يقالُ له اللسان والمُلَسَّنَة من النعال كمُعَظَّم ما فيها طُول ولَطَافة كَهيْئة اللسان وكذلك امرأةٌ مُلَسَّنَةُ القَدَمَيْن وفلان يَنْطِق بلسان اللّهِ أي بِحُجّته وكلامه وهو لِسانُ القَوْم المُتَكَلِّم عنهم ولِسانُ النّارِ شُعْلَتُها وقد تَلَسَّنَ الجَمْرُ»[٨٦]

---

(٨٥) Jiffers & Lihiste, P. 147.

(٨٦) الفيروز آبادي، ج ٤، ص ٢٦٢.

ويلاحظ في المعاني التي أوردها القاموس المحيط ـ فيما يتعلق باللغة العربية المعاصرة ـ ما يلي :

أ ـ غياب بعض المعاني القديمة المتصلة بالأدوية المختلفة الخاصة بأمراض مختلفة نظراً لتغير معظم مايتصل بالطب والأمراض والأدوية .

ب ـ غياب بعض المعاني القديمة المتصلة اتصالاً وثيقاً بمجتمعات تبدلت من جميع نواحيها .

جـ ـ بعض المعاني متصل اتصالاً وثيقاً بالبيئة البدوية الصحراوية وما يتصل بها من حيوانات برية وأليفة ومن طرائق خاصة للمعيش بها .

د ـ اللسان مرادف للغة فقولك اللسان العربي كقولك اللغة العربية .

٢ ـ لهجة : ولَهِج به كفَرِح أُغْرِي به فثابَر عليه وأَلْهَجَ زيدٌ إذا لَهِجَت فِصَالُهُ بِرِضَاع إمَّهاتِها واللَّهْجَةُ ويُحَرَّكُ اللِسان والهاجّ الهياجا اخْتَلَطَ وعَيْنُهُ اخْتَلَطَ بها النُعاسُ واللَّبَنُ خَثَر حتى يَخْتَلِطَ بَعْضُه بِبَعْض ولم تَتِمّ خُثُورَتُهُ ولَهْوَجَ أمْرَهُ لم يُبْرِمْهُ والشُّواء لم يُنْضِجْهُ أو لم يُنْعِم طَبْخه واللُّهْجَة اللَّمْجَة ولَهَّجَهُم تَلْهِيجاً أطْعَمَهُم إيّاها والمُلَهَّج كمُحَمَّد مَنْ يَنَام ويَعْجَزُ عن العَمَل (٨٧) .

ويلاحظ في المعاني التي أوردها القاموس المحيط ـ فيما يتعلق بالعربية المعاصرة ـ ما يلي :

أ ـ غياب بعض المعاني في العربية المعاصرة وذلك مثل الملهج من ينام ويعجز عن العمل .

ب ـ ارتباط بعض المعاني بالبيئة الصحراوية البدوية .

جـ ـ انحدار بعض المعاني إلى اللهجة العامية مثل لهوج أمره لم يبرمه .

د ـ اللهجة مرادف اللسان .

(٨٧) الفيروز آبادي ، ج ١ ، ص ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

٣ ـ لغة: «أَصْواتٌ يُعَبِّر بها كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أغْـراضِهِم ج لُغَاتٌ ولُغُـونَ ولَغَا لَغْـواً تَكَلَّمَ»[٨٨].

ويلاحظ فيما أورده القاموس المحيط ـ فيما يتعلق بالعربية الفصحى المعـاصرة ـ ما يلي:

أ ـ غياب صيغة الجمع لغون.

ب ـ لافرق بين معنى كلمة لغة ومعنى كلمة لهجة.

٤ ـ لكنة:«ولكن كَفَرِح لَكَناً مُحَرَّكَةً ولُكْنَة ولُكونة ولُكْنونة بِضَمِّهِنّ فهو أَلْكَن لا يُقيمُ العَرَبِيّة لِعُجْمَةِ لِسانِه. . .»[٨٩].

ويلاحظ فيما أورده القاموس المحيط ـ فيما يتعلق بالعربية الفصحى المعـاصرة ـ مايلي:

أ ـ اللكنة صفة سلبية لمن لا يجيد العربية.

وهذه الكلمات التي تعرضنا لها (لسان، لغة، لهجة، لكنة) نرى أنها قد أصابها التغير الدلالي البعيد المدى بفعل الانتشار الثقافي من ناحية والترجمة من ناحية أخرى، فنجد في العربية الفصحى وبخاصة في مجال الدراسات اللغوية أن ثمة مجموعة من الكلمات تشكل فيما بينها مجالاً دلالياً خاصاً وهي: (لغة، لهجة، لهجة شخصية، لكنة) وقد دفع الانتشار الثقافي والترجمة مستخدمي اللغة العربية (وبصفة خاصة دارسي علم اللغة) إلى أن يجعلوا لكل كلمة منها معنى بعينه فلا تتداخل كلمتان في أكثر من معنى وذلك على النحو التالي:

١ ـ اللغة (language): «نظام صوتي أساساً يتكون من رموز اعتباطية يستعمله أفراد جماعة ما لتبادل الأفكار والمشاعر»[٩٠].

أو هي: «طريقة أنسانية بحتة غير غريزية لتواصل الأفكار والانفعالات والرغبات بواسطة الرموز المنتجة إنتاجاً إرادياً»[٩١].

---

(٨٨) المرجع السابق، ج ٤، ص ٣٧٨.

(٨٩) المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٦٣.

(٩٠) الخولي.

(٩١) حسب تعريف سابير. انظر: ليونز، ج ١، ص ٤.

أو هي: «نظام اجتماعي من الرموز المنطوقة الاعتباطية تتعاون به مجموعة اجتماعية»[٩٢].

أو هي: «نمط اجتماعي منظم يتواصل بها البشر ويتفاعل بها الواحد مع الآخر بواسطة الرموز الاعتباطية المسموعة ـ المنطوقة المعتاد استخدامها»[٩٣].

أو هي: «مجموعة ـ محدودة أو غير محدودة ـ من الجمل، كل جملة محدودة من حيث الطول وتتركب من مجموعة محدودة من العناصر»[٩٤].

وتتكون اللغة من لهجات عديدة، ولكنات عديدة كذلك (سنعرض بعد ذلك لمفهومي اللهجة واللكنة)، وثمة مفهوم آخر للغة في مقابل الكلام (كما رسم سوسير تمييزاً فارقاً بين المصطلحين) والمراد باللغة في هذا الخصوص أنه النظام اللغوي الذي يعد ظاهرة اجتماعية أو نمطاً اجتماعياً منظماً، وهي في حد ذاتها تجريدية بحتة ليس لها وجود فيزيائي لكنه يتحقق في مناسبات معينة في السلوك اللغوي لأفراد الجماعة.

٢ ـ اللهجة (dialect): «الطريقة التي يتكلم بها الناس اللغة والتي كثيراً ما تدل على انتماء جغرافي أو اجتماعي أو ثقافي. وبذلك قد تكون اللهجة جغرافية أو اجتماعية، ولكل لغة عدة لهجات لكل منها صفات خاصة تميزها عن سواها من ناحية صوتية أو صرفية أو معجمية أو نحوية. وقد تتطور اللهجة لتصبح لغة مستقلة مع مرور الزمن ولاعتبارات جغرافية وسياسية وثقافية»[٩٥].

أو هي «تنوع مميز من الناحية الاجتماعية أو الإقليمية في لغة ما ويظهر هذا التنوع من خلال مجموعة معينة من الكلمات والأبنية النحوية وترتبط اللهجات المنطوقة عادة بنطق مميز أو لكنة مميزة، وتبدو أي لغة ذات لهجات متنوعة خاصة إذا ما كان يتكلم بها عدد كبير من

(٩٢) حسب تعريف بلوخ، وتراجر. انظر: ليونز، ج ١، ص ٥.
(٩٣) حسب تعريف هاله. انظر: ليونز، ج ١ ص ٦.
(٩٤) حسب تعريف تشومسكي. انظر: ليونز، ج ١ ص ٩.
(٩٥) الخولي.

الناس وكانت هناك حدود جغرافية تفصل بين جماعات منهم أو كانت هناك تقسيمات في النظام الاجتماعي الطبقي، وقد تهيمن لهجة من اللهجات باعتبارها شكلاً قياسياً أو رسمياً لهذه اللغة(٩٦).

٣ ـ اللهجة الشخصية (idiolect): «الطريقة التي يتكلم بها فرد ما لغة ما والتي تميزه عن سواه من الأفراد الذين يتكلمون اللهجة ذاتها أو اللغة ذاتها»(٩٧).

أو هي «اللهجة الفردية أي لهجة فرد من الأفراد كما يصوغها اللغويون-وكل لهجة شخصية تختلف عن اللهجات الشخصية الأخرى بشكل مؤكد في المفردات والنطق وربما بدرجة طفيفة في النحو أيضاً(٩٨).

٤ ـ اللكنة: «المؤثرات السمعية المتراكمة لسمات طريقة نطق الفرد التي تميزه من الناحيتين الإقليمية والاجتماعية وتؤكد المؤلفات في علم اللغة على أن هذا المصطلح لا يشير إلا إلى طريقة النطق، ومن ثم يتميز عن مصطلح اللهجة (dialect) التي تشير إلى القواعد والمفردات أيضاً(٩٩).

وهكذا نلاحظ أن المفردات أخذت مدلولات أكثر تحديداً، وذلك بفعل الانتشار الثقافي، والترجمة، وحاجة المجتمع العربي إلى التعبير عن مفاهيم لم تكن موجودة في تراثه ـ على الأقل بمثل هذه الدقة ـ وهنا توسلت العربية باستخدام كلمات قديمة بدلالات جديدة أو على الأقل مختلفة وأكثر تحديداً، وليس هذا هو الطريق الوحيد الذي تنهجه اللغات، فيمكن كذلك أن تترجم ترجمة حرفية، وبهذه الطريقة دخلت كلمات مثل لاسلكي ترجمة لكلمة (wireless)، ولوحة الجناح ترجمة لـ (wing panel)، وقرص ونشستر ترجمة لـ (Win-chester disk)، وموجة حاملة ترجمة لـ (wave carrier)، وموجة قصيرة ترجمة لـ (short wave)، ويمكن أيضاً أن يكون التعبير عن المفاهيم الجديدة عن طريق التعبير عن المصطلح

(٩٦) Crystal, P. 110.
(٩٧) الخولي.
(٩٨) ليونز، ج ١، ص ٣٧.
(٩٩) Crystal, P. 7.

الأجنبي بعبارة كما لو كانت شرحاً له، وهذه الطريقة من المفترض أنها تمثل مرحلة تمهيدية للتعبير (في للغة الآخذة) عن المصطلح الواحد بمصطلح مماثل وليس شرحاً لذلك المصطلح بعبارة أو جملة من اللغة الآخذة، ومثال ذلك ترجمة مصطلح (walkthrough) بـ «عملية مراجعة تصميم البراجيات أو الشفرة بالبحث في تفاصيل منطق البرنامج»، وترجمة المصطلح «vtoc» (volume table of contents) بـ «جدول في بداية شريط أو قرص بيانات يصف محتويات كل ملف عليه»(١٠٠)، ويمكن أن يكون التعبير عن المفاهيم الجديدة عن طريق الاقتراض أو نقل الكلمة الأجنبية إلى اللغة المقترضة وهو ما يطلق عليه في اللغة العربية التعريف وذلك كما عرضنا له من قبل.

والذي يتصفح كتاباً في علم اللغة ـ باللغة العربية ـ هذه الأيام يجد مصطلحات جديدة في دلالتها أو في صياغتها أو فيهما معاً، والدافع وراء استحداث هذه المصطلحات ذلك الانتشار الثقافي، وأيضاً الترجمة، الذي يجعل أبناء الأمة العربية يستحدثون من الطرق والوسائل ما يمكنهم من التعبير عن المفاهيم الجديدة التي عرضت لهم في احتكاكهم الثقافي مع الحضارة الأوروبية. ومن هذه المصطلحات: لغة، ولهجة، ولهجة شخصية ولكنة (التي تعرضنا لها آنفاً)، وحركة، وصامت، وحركة مزدوجة، ونظم الجملة، ونظام لغوي، وبنية لغوية، ونحو تحويلي توليدي، ومورفولوجيا، وفوناتيك، ودلالة توليدية، وفونيم، والألوفون، وملامح مميزة، وملامح غير مميزة، وحركة قصيرة، وحركة طويلة، وحركة مفتوحة، وحركة مغلقة، وحركة أمامية، وحركة خلفية، ومن ينظر في كلمة مثل بأباه في معجم قديم مثل القاموس المحيط ثم ينظر إلى هذه الكلمة في معجم حديث مثل: «معجم مصطلحات علم اللغة الحديث وضع نخبة من اللغويين العرب ـ مكتبة لبنان ١٩٨٣»، و «معجم علم اللغة التطبيقي وضع الدكتور محمد علي الخولي» يرى تلك الظاهرة بأوضح ما يكون:

البأباة (المعنى القديم): «وبأباه وبه قال له بأبي أنت، وبأبأ الصبي قال بابا، والبؤبؤ كالهدهد الأصل، والسيد الظريف، ورأى المكحلة، وبدن الجرادة، وإنسان العين ووسط

(١٠٠) الكيلاني.

الشيء وكسر سور (بؤبوء) ودحداح (بأباء) العالم، وتبأبأ عدأه[١٠١].

وتستخدم هذه الكلمة استخداماً اصطلاحياً في علم اللغة وعلم النفس فهي كما وردت في معجم مصطلحات علم اللغة الحديث: «في مراحل اكتساب اللغة»[١٠٢]، ويستخدم حامد الفقي[١٠٣]، وأحمد زكي محمد[١٠٤] هذا المصطلح بالمعنى الوارد عند بلومفيلد[١٠٥]. فهو يشير إلى المرحلة التي يردد الطفل فيها ـ تحت تأثير مثيرات مختلفة ـ أصواتاً شفوية عديدة، ويردد هذه الأصوات، وتؤدي هذه العملية إلى عادة فكلما قرع صوت مماثل أذنيه حاول إنتاج هذا الصوت، ووفق هذه العادة يقلد كلام المحيطين به، وبطبيعة الحال يبدأ بنطق مقطع البأبأة نظراً لسهولة الصوت الشفوي فهو يبدأ بالأصوات الشفوية، وهناك ما يبرر انتهاء المقطع بالوقفة الحنجرية بما يعكس إمكانياته الأولية في النطق، ويستعمل الطفل في مرحلة البأبأة كل الأصوات التي تعد أساساً صالحاً لتعلم أي لغة من اللغات في العالم، وجانب من هذه الأصوات يختفي إذا لم يلق تعزيزاً يتمثل في وجودها في لغة المحيطين به.

والترجمة تدخل كذلك تراكيب جديدة في اللغة المترجمة إليها، وبطبيعة الحال تكون هذه التراكيب موضع خلاف فيترجم (في اللغة العربية) بعض المترجين تعبيراً مثل the same time بـ (نفس الوقت)، ومعروف أن كلمة نفس تستخدم في العربية للتوحيد بعد الكلمة المؤكدة على النحو التالي: الوقت نفسه، بيد أن هذا التعبير لا يفي في بعض الأحوال بالمعنى الموجود في اللغة الإنجليزية الأمر الذي يدفع بعض المترجين إلى التعبير عن هذا المفهوم بقولهم: ذات الوقت.

(١٠١) الفيروزآبادي، ج ١، ص ٧.

(١٠٢) بشر (وآخرون).

(١٠٣) الفقي، ص ٣٠.

(١٠٤) محمد، ص ١٣٢.

(١٠٥) انظر: Bloomfield, P. 30

(٣) التنوع في إطار اللغة الواحدة

يميل دارسو اللغة إلى تصور أن اللغة (أي لغة) يستخدمها المتكلمون بها بطريقة واحدة، ويميلون إلى تجاهل حقيقة أن كل لغة تكون ذات تنوع بعيد مداه، وعلى الأخص من حيث الطريقة التي يتكلم بها أصحابها، ويعد هذا التنوع جانباً مهماً ومسلماً به تماماً في حياة مستخدمي اللغة الذين ينقسمون إلى جماعات إقليمية واجتماعية مختلفة، وهذا التنوع في حالة حركة حيث يتحول المرء ـ كلما انتقل من الناحية الاجتماعية أو الجغرافية ـ في كثير من الجوانب اللغوية في إطار اللغة الوطنية الواحدة[١٠٦]، فكثيراً ما يتخلى المصريون الذين تنتقل إقامتهم من الريف إلى الحضر عن الخصائص اللغوية للهجتهم ليتحولوا إلى اللهجة التي تسود في المكان الجديد الذي كان استقرارهم فيه، وثمة تحولات أخرى في إطار التنوعات الموجودة في اللغة الواحدة، ولا تتطلب انتقالاً للأفراد من الناحية الاجتماعية أو الجغرافية، ولكن تكون نتيجة تقليد الطوائف الاجتماعية الدنيا للطائفة (أو الطوائف) الاجتماعية المهيمنة (أو العليا)، ولنضرب أمثلة من العامية المصرية، فنحن نجد التنوعات الآتية وهي ذات دلالة واحدة تقريباً (خصوصاً بإهمال الملامح الاجتماعية لأصحابها): ولد، واد، ياد، وله، ولد... الخ، وبابا، وأبي، وأبّاه، وأبُويا، وآبه... الخ، وبنت، وبِتْ، وبِهْ.. وهلم جرا، ويجب أن تأخذ في الاعتبار التنوعات اللغوية في إطار اللغة الوطنية الواحدة، وتبنى الناس في مجموعة اجتماعية معينة النطق بكلمة دون أخرى، واستمرار تغير هذا التبني. وإلا فسوف نواجه بمشكلات زائفة. فمثلاً الأطفال في كثير من أحياء القاهرة الشعبية كانوا يقولون منذ أكثر من عشرين عاماً آبَهْ وأُمَّهْ (والدي ووالدتي) بيد أنهم الآن رجال وأطفال يقولون بابا، وماما، وبإهمال التنوع اللغوي في إطار اللغة الواحدة (الذي يتناظر مع التنوع الاجتماعي في المجتمع الواحد)، قد يندفع بعض الدارسين إلى تصور تغير الصيغة آبا إلى بابا، أو تغير الصيغة أمه إلى ماما، وهو ما نقصد به المشكلات

(١٠٦) انظر: Labov, P.P. 518-534.

الزائفة، فالأمر لا يتعدى تنوعاً لغوياً في إطار اللغة الواحدة، فعندما كان أطفال المناطق الشعبية في القاهرة يقولون آبا وأمه كان أطفال أرقى المناطق في القاهرة يقولون بابا، وماما، وفي ذلك الحين كان هناك بعض الأطفال الذين ينتمون إلى الطائفة الأولى يقلدون أطفال الطائفة الثانية لأسباب اجتماعية وثقافية واقتصادية وجغرافية، وكان هناك أيضاً توجه اجتماعي عام للنهوض بأطفال المناطق الشعبية في القاهرة، وكذلك النهوض الاجتماعي العام، ومع دخول أجهزة التلفزيون، ومع الانهيار الطبقي الذي رافق عمليات التأميم والتطبيق الاشتراكي[١٠٧] في الستينات وجدنا أن استخدام أبه وأمه ينحسر، وأن استخدام ماما وبابا يشيع في معظم بيوت الطبقة العاملة في القاهرة.

فالتغير اللغوي (التاريخي) يسبقه تنوع لغوي (تزامني) يمهد له، وفي كثير من الأحيان يصيب التنوع اللغوي ما يصيب الطوائف الاجتماعية في المجتمع صاحب اللغة فيرتفع التنوع الذي يقترن بالطائفة الاجتماعية ذات المكانة، وينحدر التنوع اللغوي الذي يقترن بالطائفة الاجتماعية الأقل مكانة[١٠٨].

ونرى في اللغة الإنجليزية القديمة تنوعاً لغوياً يتعلق بنظم الجملة سبق تحولاً معيناً ففي النصوص الإنجلوسكسونية نجد الترتيب الأكثر شيوعاً هو: الفاعل ـ الفعل ـ المفعول كما نجد كذلك عدداً من الجمل يكون ترتيب وحداتها النحوية فيها مختلفاً فعلى سبيل المثال قد يسبق الفعل الفاعل كما في ferde he (ومقابلها في الإنجليزية الحديثة He traveled) وقد يسبق المفعول الفعل كذلك كما في: He him gescah (ومقابلها في الإنجليزية الحديثة he saw him)، وقد يكون المفعول أيضاً في بداية الجملة متقدماً على الفاعل والفعل كما في: him man ne sealde (ومقابلها في اللغة الإنجليزية الحديثة: no man gave /any/to him)، ولم تعد هذه العلاقات النظامية التي كانت موجودة جنباً إلى جنب مع الترتيب الأكثر شيوعاً: فاعل ـ فعل ـ مفعول ممكنة في اللغة الإنجليزية الحديثة[١٠٩].

(١٠٧) هناك رابطة قوية بين التقلبات السياسية، والتقلبات اللغوية انظر: Saussure, P. 150.

(١٠٨) التنوع اللغوي هنا يعني الصورة أو الشكل الذي تجاوره صور أخرى أو أشكال أخرى للاستخدام اللغوي مقترنة بطوائف المجتمع. انظر: Downes, P. 195.

(١٠٩) Yule, P. 175.

وبعد ظهور اللغات الأدبية العظمى تدعيماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ودينياً وعسكرياً لإحدى الطوائف الاجتماعية في المجتمع الواحد، الأمر الذي يرفع الشكل اللغوي المرتبط بها فوق الأشكال اللغوية الأخرى التي ترتبط بالطوائف الاجتماعية الأخرى، ويترتب على ذلك صيرورة الشكل اللغوي ذي المكانة شكلاً مشتركاً، ومستخدماً من قبل الطوائف الاجتماعية جميعها لدوافع اجتماعية وسيكولوجية، وفي النهاية يصبح هذا الشكل اللغوي بمثابة لغة أدبية، فقبل الإسلام وربما قبل العصر الجاهلي لعب النفوذ الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي دوره في تغليب لهجة قريش على اللهجات الأخرى المجاورة مما حولها من لهجة محلية إلى لغة إقليمية، وبعد الفتح الإسلامي لعبت العوامل المتنوعة المشار إليها دورها مرة أخرى لتصبح لغة عالمية.

واللغة الهلينستية أي لغة بلاد الإغريق القديمة كانت هي اللهجة الاتيكية التي ظلت حتى القرن الخامس (ق. م.) لغة محلية لإقليم منعزل، بيد أن قيام الأمبراطوية المقدونية مكنت هذه اللهجة لما صاحبها من نفوذ من أن تطغى على باقي اللهجات وأن تصبح اداة للتفكير عند جميع الإغريقيين، فاللغة الإغريقية هي اللهجة الاتيكية بعد أن أصبحت هذه الأخيرة اللغة المشتركة التي سادت على اللهجات المحلية.

واللغة اللاتينية كانت لغة روما قبل كل شيء ثم أصبحت بعد ذلك لغة إيطاليا المشتركة ثم لغة العالم الغربي كله، ويرجع هذا الانتشار إلى أهمية روما السياسية.

واللغة الفرنسية كانت في الأصل لهجة الايل دي فرانس (Ele de france)، ويرجع انتشارها وهيمنتها إلى أهمية باريس السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

واللغة الإسبانية خرجت من لهجة في الشمال، وهي لهجة قسطلت القديمة، وقد صارت اللهجة القسطلانية اللغة الأدبية في القرن الثالث عشر بفضل الفونس العاشر الذي كان يحتل بالنسبة إلى إسبانيا مركز دانتي إلى إيطاليا، فاللغة الإسبانية المشتركة نتيجة هيمنة قسطلت في السياسية والأدب.

واللغة الإنجليزية المشتركة ظهرت في لندن وهي محصلة لهجات مختلفة، ويرجع

انتشار الإنجليزية وهيمنتها إلى أهمية لندن السياسية والاجتماعية لدى المقاطعات الأخرى المحيطة بها[110].

ولا تنحصر أوجه التنوع في إطار اللغة الواحدة في انشعابها إلى لهجات مختلفة، ولكن هناك اللكنات كذلك، فمن أوجه التنوع كذلك أنك سواء كنت تتكلم اللغة الفصحى أو اللهجة العامية فإنك تتكلم بلكنة معينة، ويعد من قبيل الخرافة الاعتقاد بأن بعض الناس يتكلمون بكلنة وأن الآخرين ليس لديهم لكنة، فكل فرد له لكنة تحدد انتماءه الإقليمي والاجتماعي، وتنحصر اللكنة في الملامح الفونولوجية التي تميز الفرد بينما تمتد اللهجة لتشمل الملامح النحوية والمفردات بالإضافة إلى الجوانب الفونولوجية.

ولا تقف هذه التنوعات ـ بشكل عام ـ عائقاً في سبيل الوضوح الاتصالي المتبادل بين المتكلمين باللهجات المختلفة أو التنوعات المختلفة للغة الواحدة، وليس هناك من وجهة النظر اللغوية البحتة تنوع أفضل من تنوع آخر، أما من وجهة النظر الاجتماعية فتكون بعض التنوعات بطبيعة الحال أكثر احتراماً.

وهناك أبعاد عديدة للتنوع اللهجي في إطار اللغة الواحدة، فهناك عامل يتصل بالتعليم، والمهنة، والطائفة الاجتماعية، فقد وجد أنه فيما بين أولئك الذين تركوا النظام التعليمي في مرحلة مبكرة هناك اتجاه أعظم لاستخدام صيغ تكون نادرة نسبياً في كلام أولئك الذين يواصلون تعليمهم إلى الجامعة، وقد وجد كذلك أن الشخص الذي أنفق وقتاً طويلاً في دراسته النظامية يميل إلى أن يكون لديه ملامح اللغة المكتوبة تحصل عليها من ذلك الوقت الطويل الذي أنفقه في التعامل مع اللغة، ومما يتصل بالتعليم الاختلافات التي تتعلق بالمهنة، والطائفة الاجتماعية حيث تجد أن لذلك تأثيراً في كلام الأفراد، فكل مهنة ذات قدر معين من اللغة الخاصة (Jargon) وهي التي يجد أولئك الذين لا ينتمون إليها صعوبة في فهمها[111].

والعامل الثاني المؤثر في التنوع اللهجي في إطار اللغة الواحدة العمر، والجنس،

(١١٠) الخابح، ص ٢٤٥، وليونز، ج ٢، ص ص ٤ - ٧.
(١١١) انظر: Yule, P.P. 190-191.

بحيث نرى اختلافاً بين جوانب لغوية في إداء جيلين، وعلى الأخص عندما يفصل بينهما فارق زمني كبير نسبياً، والمتدبر لكلام المسنين يجد فيه ما لا يجده في كلام الشباب في المجتمع الواحد، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالرجال والنساء في مجتمع واحد حيث نجد بعض الملامح التي تميز طريقة حديث كل منهما فمثلاً النساء في القاهرة - بشكل عام - ترقق الأصوات المفخمة في اللغة العربية بحيث تقترب كلمات مثل: طيب، وطورطة من تيب وتورتة، وبالإضافة إلى ذلك نجد هناك كلمات وتعبيرات لا يستخدمها الرجال وذلك مثل: يا لهوي، ويا خراشي، ادلعدي، يا اختي. . . الخ ونجد كذلك كلمات وتعبيرات تشيع فيما بين الأطفال والصبية دون غيرهم من طوائف المجتمع.

والعامل الثالث المؤثر في التنوع اللغوي عامل الخلفية العرقية فنجد في كلام المهاجرين الجدد وأطفالهم عادة ملامح تشير إلى هويتهم، وعندما يشكل هؤلاء المهاجرون طائفة اجتماعية مميزة نجدهم يحتفظون بعدد كبير من الملامح في اللغة الجديدة التي تبنوها، وتزداد هذه الملامح بروزاً ووضوحاً إذا ما خضعت هذه الطائفة لعزلة اجتماعية، أو للتمييز العنصري. الأمر الذي يجعل هذه الملامح موصومة، وتعد من رديء الكلام مما يدفع أصحابها إلى التخلي عنها بمرور الوقت في حركتهم العفوية لإنجاز تقدم اجتماعي.

ولايقف التنوع عند هذا الحد، فلكل فرد لهجة خاصة تميزه وهو ما يطلق عليه اسم اللهجة الفردية، واللهجة الفردية تكون في جانب من جوانبها محصلة العوامل السابقة من تعليم، ومهنة، وطائفة، وعمر، وجنس، وإقليم. . الخ بالإضافة إلى العوامل البيولوجية والشخصية التي ترجع إلى بنية الفرد وشخصيته، وثمة تنوعات أخرى قوامها الأسلوب والسياق، فالإنسان عندما يتكلم مع صديقه يختلف أسلوبه عما إذا كان يتكلم مع رئيسه، وكذلك الأمر عندما يتكلم مع مرءوسه، وعندما يتكلم مع أخته يختلف أسلوبه عما إذا كان يتكلم مع زوجته، وكذلك الأمر عندما يتكلم مع امرأة أجنبية أو فتاة أخرى، ويختلف أسلوب المرء كذلك إذا ما كان يأمر، أو يستعطف، أو يحاور ويجادل. . الخ، ويكشف عن بعض هذه الجوانب استخدام الضمائر في اللغة العربية أنت، وأنتم، وأنا، ونحن، واستخدام الضمائر أيضاً في اللغة الفرنسية مثل: tu، و vous. . . الخ، وفي اللغة الألمانية: sie، و du، وفي اللغة الأسبانية usted، و tu. . .

الخ ، وحتى اللغات التي لا يوجد فيها مثل هذه الإمكانيات نجد أن لديها إمكانيات أخرى تتناسب مع السياقات المختلفة، وذلك مثل الألقاب المتوعة والألفاظ الخاصة المناسبة، وتوجد بعض التنوعات الأسلوبية في اللغة المكتوبة التي تتناسب مع السياقات والعلاقات المتنوعة فمثلاً تشيع في الخطابات الرسمية العبارة : نحيط سيادتكم علماً. . . بينما يشيع في الخطابات العائلية والشخصية أعرفك أن. . . ، وما يماثل ذلك في اللغة الإنجليزية يكتب إلى رجال الأعمال : I am writing to inform you بينما يكتب إلى الأصدقاء Just Wanted to let you know وهلم جر[112].

وثمة تنوعات أخرى في إطار اللغة الواحدة قوامها ما يمكن أن نسميه أسلوب التخصص، فالكتابات القانونية تتميز بملامح لغوية قد لا نجدها في الكتب الأخرى، وتكشف الأفلام والمسلسلات عن ملامح خاصة للأداء اللغوي للمرافعين القانونيين أمام المحاكم، والكتابات الأدبية لها كذلك أسلوبها المتميز، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالكتابات الخاصة بالرياضيات، والفلسفة، والنحو، وعلم اللغة، والجغرافيا، والتاريخ . . الخ ، إلى حد أن المرء قد يجد بعض الصعوبات في فهم الأساليب في المجال الذي يبتعد عن تخصصه ، وهناك بطبيعة الحال مصطلحات خاصة لكل نمط من هذه الأنماط، وقد يشترك مصطلحان في اللفظ ويختلفان في المعنى من نمط إلى آخر علاوة على الاختلاف عن المعنى العام له في الأسلوب المحايد أو المعتاد.

ويشكل الازدواج اللغوي شكلاً من أشكال التنوع في إطار اللغة الواحدة، ويشير الازدواج اللغوي إلى وجود تنوعين مختلفين إلى حد بعيد للغة موجودين معاً في مجتمع واحد، ولكل تنوع إطار مميز من الوظائف الاجتماعية، ويكون أحدهما في مستوى مرتفع ويكون الآخر في مستوى متدن، والازدواج اللغوي في المنطقة العربية بين الفصحى والعامية، فأينما تسير في البلدان العربية تجد اللغة العربية الفصحى جنباً إلى جنب مع اللهجة الدارجة، وتعد اللغة العربية الفصحى المستوى الرفيع (H)، وتعد اللهجة العربية الدارجة المستوى الأدنى (L)، ويستخدم المستوى الأول في التعليم، والطباعة، والمواقف الرسمية بينما

(١١٢) Yule, P. 194

يستخدم المستوى الثاني في المواقف التي هي دون المواقف السابقة في المعاملات الأسرية، والبيع، والشراء، وبين الأصدقاء... الخ، وقد كان هذا الأمر موجوداً كذلك في العصر الجاهلي وصدر الإسلام (أي ما يسميه اللغويون بعصر الاحتجاج اللغوي) وعلى طول تاريخ العربية، فكانت القبائل العربية تتخذ من اللغة العربية الفصحى لغة للأدب والدين وكان أبناؤها بها يكتبون، ويقرءون، وينظمون الشعر، ويخطبون، فإذا خلوا إلى أنفسهم أو عنّ لهم من أمور حياتهم ما ليس بذي بال، عبروا عنه بلهجتهم الخاصة الدارجة[١١٣].

وقد كشفت كتب التراث عن وجود التنوع في اللغة العربية الفصحى في عصر الاحتجاج اللغوي، ويتجلى هذا التنوع في بعض الاختلافات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، وهي تنوعات تتطابق مع مظاهر التغير اللغوي التي رصدها بعض اللغويين، الأمر الذي يؤكد على حقيقة أن التنوع أو عدم التجانس في اللغة الواحدة مصدر للتغير اللغوي، حيث تتبع التقلبات الاجتماعية تقلبات في ذلك التنوع الموجود في إطار اللغة بحيث يطفو على سطح اللغة ذلك التنوع الذي طفت جماعته اللغوية على سطح المجتمع، ويمكن تصنيف التنوعات التي وردت في المصادر اللغوية العربية بما يتناظر مع مظاهر التغير اللغوي على النحو التالي:

أولاً: تنوعات تتناظر مع ظاهرة المماثلة اللغوية

تذخر المصادر اللغوية بتنوعات كثيرة تتناظر مع ظاهرة المماثلة في التغير اللغوي، فالصقر بالصاد من الطيور الجارحة وبالزاي لغة، ووردت الصراط في القرآن الكريم بالزاي حسب قراءة أبي عمرو[١١٤]، والأجلح وهو الأصلع ينطق بها الأجله، وتقول قبيلة تميم في فزت فزد، ويقول الحجازيون برأت من المرض ويقول سائر العرب برئت، وروى أن الكلابيين كانوا ينطقون بكلمة تفاوت بفتح الواو ولكنها وردت في القرآن الكريم بضم

(١١٣) أنيس، في اللهجات العربية، ص ١١

(١١٤) الفارسي، ج ١، ص ٣٧.

الواو، ويقول أهل تهامة في العَضُد العُضُد بضمتين، وروى أن تميم وأسد كانوا ينطقون بأطراد كلمات مثل: بَعير، وشَهيد، وزَئير بكسر الحرف الأول وهو ما يشبه كلمات موجودة في بعض اللهجات الحديثة مثل كبير، وسعيد، ونضِيف بكسر أولها، وتشير المعاجم العربية إلى أن بني تميم وأسد كانوا ينطقون بها بفتح الحرف الأول منها، ووردت غشاوة بضم الغين وفتحها، والثانية لغة ربيعة[115]، وتفتح قبيلة طيء الحرف الثاني من بقي، وفني، ورضي، وتقول بنو تميم في ما فتئت أذكره: ما فتأت فيفتحون التاء، ويقول بنو طيء في (مات يموت): مات يمات، ويقول بنو أسد في إخال بكسر الهمزة أَخال بفتحها، وروى أن تميم كانت تقلب السين صاداً مع بعض الأصوات المفخمة كأصوات الأطباق وكذلك مع القاف والغين والخاء إذا كانت بعد السين مثل سراط وصراط، وسَخْر لكم وصَخُر لكم، وسَيْقل وصَيْقل، وسَبْغة وصبغة، والسْاق والصُّاق، والسُّقْر والصُّقْر، وورد أيضاً أن صقوب الإبل أي أرجلها لغة في سقوبها، وورد أيضاً أن افلطني الرجل افلاطاً لغة في أفلتني، وورد في المخصص أن تميم تقول في فَحَصْتُ برجلك: فَحَصْطُ برجلك، وورد في المخصص أيضاً أن قريش تقول كشطت وأن تميم وأسد وقيس تقول قشطت، ومن القبائل من تقلب الصاد حين يليها دال زايا مطبقة كما في أصدق ويصدق ويصدفون، ومن القبائل من تقول في اجْتَمعوا: اجْدَمعوا، ووردت الصيغ الآتية التي يبدو في تنوعها تناظر مع ظاهرة المماثلة في التغير اللغوي: غَرَس وغَرَز، وَزفَت وسَفَت، والبُسَاق والبُصَاق، وغت وغط، وهتلت السماء وهطلت السماء، وأصيلان أصيلال[116].

ثانياً: تنوعات تتناظر مع ما يمكن أن يطلق عليه «الجهد الأقل»

تذخر المصادر اللغوية بتنوعات كثيرة تتناظر مع تلك الظواهر التي أسماها بعض الباحثين في التغير اللغوي إتجاهاً إلى «الجهد الأقل» فقد جاء في لسان العرب «قال أبو زيد:

(١١٥) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٢٥.
(١١٦) انظر: ابن سيده، ج ١٣، ص ص ٢٧١ - ٢٩٠، وأنيس، في اللهجات العربية، ص ص ١٦، ١٧، ٥٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٦٤.

أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لاينبرون. وقف عليها عيسى بن عمر فقال: ماآخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذ اضطروا نبروا. قال وقال أبو عمر الهذلي قد تَوَضَّيت فلم يهمز وحولها ياء وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز(١١٧)، وقد قرئت: يُومنون، وبِئس، وفأذنوا على الترتيب: يومنون، وبيس، فَاذنوا، وتبدل الهمزة واوا كما في: يُؤاخذ، الفؤاد، هُزؤاً فتكون على الترتيب: يُواخذ، الفُواد، هُزواً، وتبدل الهمزة ياء مثل: رئاء الناس، وخَاسِئاً فتنطق رياء الناس، وخَاسِياً، ووردت كلمة تِيْثم بدلاً من تأثم بكسر حرف المضارعة حسب لهجة بهراء، ووردت الصيغ الآتية في اللهجات العربية: الأرواهر، والأصْر والهَصْر، والأزّ والهَزّ، والأبش والهَبْش، وأَضَه وهَضَه، وأَزَمَه وهَزَمَهُ، وبـده وبدأ وذَرا ودره، وبَـدأ وبدع، وضبـاء وضباع، وشنـأ وشَنَـع، وأَتَمّ وعَتَمّ، وأَزَرَ وعَزَرَ(١١٨).

ثالثاً: تنوعات تتناظر مع ظاهرة القلب المكاني

تذكر المصادر اللغوية بتنوعات كثيرة تتناظر مع تلك الظواهـر التي أسماهـا بعض الباحثين في التغير اللغوي قلباً مكانياً، فوردت على سبيل المثال الصيغ الآتية في اللهجات العربية: امْضَحل واضْمَحل، واكرهف واكفهر، وجذب وجبذ، واللجز واللزج، وربض ورضب، وصاعقة وصاقعة، وعميق ومعيق(١١٩).

رابعاً: تنوعات تتناظر مع ظاهرة القياس على الأكثر شيوعاً

تذكر المصادر اللغوية بتنوعات كثيرة تتناظر مع تلك الظاهـرة التي أسماهـا بعض الباحثين في التغير اللغوي قياساً على الأكثر شيوعـاً في اللغة، وذلك مثل قول بني أسد سكرانة في سكرى، وقول بني تيميم مديون في مدين(١٢٠).

(١١٧) ابن منظور، ج ١ ص ١٤، وأنيس، في اللهجات العربية، ص ٧٦.

(١١٨) انظر: ابن سيده، ج ١٣، ص ص ٢٧١ - ٢٩٠، وابن منظور، ج ١ ص ١٤، وانيس في اللهجات العربية، ص ص ٧٦، ١٣٩، ونصار، ج ١، ص ١١٧.

(١١٩) أنيس، في اللهجات العربية، ص ١٩٢.

(١٢٠) الفيروزآبادي، ج ٢، ص ٤٩.

خامساً: تنوعات تتناظر مع ظاهرة سقوط النهايات

تذكر المصادر اللغوية بتنوعات كثيرة تتناظر مع تلك الظاهرة التي أسماها الباحثون في التغير اللغوي سقوطاً للنهايات، وذلك مثلما ورد في المخصص لابن سيده: «اللصت ـ اللص في لغة طيء وجمعه لصوت، وهم يقولون طست وغيرهم طس»(١٢١)، وما روى من أن قبيلة طيء تميل إلى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون يا أبا الحكا ويريدون يا أبا الحكم، وذكر القدماء في معايب اللخلخانية في لهجة الشحر وعمان أنهم قد مالوا إلى حذف بعض الأصوات فكانوا يقولون في ما شاء الله: ماشا الله، وروى أن قبيلتي خثعم وزبيد من قبائل اليمن كانوا يميلون إلى حذف نون من الجارة إذا وليها ساكن فيقولون خرجت ملمسجد، وروى أن بعضاً من ربيعة كانوا يسقطون نون الذين واللتين، ونسب إلى قبيلة بلحارث حذف اللام والياء من على الجارة إذ وليها ساكن فيقولون ركبت علفرس أي على الفرس، وروى أن قبيلة طيء كانت تؤثر الوقف على تاء جمع المؤنث السالم بقلبها هاء وقد سمع بعضهم يقول: «دفن البناه من المكرماه» أي دفن البنات من المكرمات، ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أنها ليست هاء ولكنها فتحة طويلة وقد حذفت التاء، وروى أن بعضاً من ربيعة كانوا يقفون على المنصوب المنون بالسكون فيقولون رأيت محمد بدلاً من رأيت محمداً(١٢٢).

سادساً: تنوعات تتناظر مع ظاهرة تغير الحركات

تذكر المصادر اللغوية بتنوعات كثيرة تتناظر مع تلك الأمثلة التي ترد في البحوث التي تتناول ظواهر التغير اللغوي فيما يتعلق بتغير الحركات، فقد قرأ الكسائي وهشام (قيل، وغيض، وجيء، وحيل، وسيق، وسيء) بكسرة مشوبة بالضمة، وقد تكون الكسرة المشوبة بالضمة هي الحركة الثانوية الأمامية المستديرة التي تأخذ رقم (٩) في نظام الحركات

(١٢١) ابن سيده، ج ٣، ص ٧٨.

(١٢٢) أنيس، في اللهجات العربية، ص ١٣٦.

الأساسية في الألفبائية الصوتية العالمية[١٢٣]، وورد أيضاً أن بوع تنطق بضمة مشوبة بالكسرة، وهو ما يمكن أن يكون أيضاً الحركة الثانوية الخلفية غير المستديرة رقم (١٦) في نظام الحركات الأساسية[١٢٤]، وهناك ما يسمى بظاهرة المعاقبة الحجازية، ويفسرها علماء اللغة بقولهم إن الواو في مثل صوام ينطق بها ياء عند الحجازيين فيقولون صيام، ويفهم من كلام النحاة وأصحاب المعاجم إن هذه الظاهرة كانت مطردة فكان الحجازيون يقولون: صيام، ونيام، وصياغ وقياد، بدلاً من صوام، ونوام، وصواغ، وقواد على الترتيب[١٢٥] ورويت كلمة حيث في صورة أخرى هي حوث[١٢٦]، وروى كذلك أن بني أسد تقول في ما أعيج به (أي ما أعبأ به): ما أعوج به، وروى أن بني سُليم وهم من القبائل الحجازية كانوا يقولون منذ بكسر الميم في منذ، ويقول بنو أسد: مكول اسما مفعولاً من كال بكيل بدلاً من مكيل[١٢٧]، وإذا كان المشهور الشائع في اسم الموصول لجمع المذكر هو الذين فقد جاءت رواية أخرى له هي اللذون، وقرىء «ومن اتبع رضوانه» بكسر الراء وبضمها، ووردت الكلمات: أسوة، ومرية، وغلظة بضم الحرف الأول في كل منها عند بني تميم، ويكسره عند الحجازيين، وقرىء بالعدوة الدنيا بكسر العين في بعض القراءات القرآنية الأخرى[١٢٨]، ووردت صنوان بالضم عند تميم وقيس، وبالكسر عند الحجازيين، ووردت برأ وبرىء بفتح الراء وكسرها، وذكر ابن جني[١٢٩] أنه قرأ عليه أعرابي بالحرم طيبي لهم وحسن مآب فقال ابن جني طوبي لهم وحسن مآب فقال الأعرابي طيبي فقال ابن جني طوبي، فقال الأعرابي طيبي فلما اشتد عليه قال ابن جني طوطو فقال الأعرابي طي طي.

---

(١٢٣) الفارسي، ج ١، ص ٢٥٩، وانظر أيضاً: ليونز، ج ١ ص ١١٢.

(١٢٤) ليونز، ج ١، ص ١١٢.

(١٢٥) أنيس، في اللهجات العربية، ص ٩٢.

(١٢٦) ابن يعيش، ج ٣، ص ص ٩٠ - ٩١.

(١٢٧) أنيس، في اللهجات العربية، ص ٩٣، وابن يعيش، ج ٣، ص ١٥٥.

(١٢٨) الفارسي، ج ٢، ص ٣٤٨.

(١٢٩) ابن جني، ج ١، ص ص ٧٥ - ٧٦.

سابعاً: تنوعات تتناظر مع ظاهرة التحول من الأصوات الشديدة إلى الأصوات الرخوة

تذخر المصادر اللغوية بتنوعات كثيرة تتناظر مع تلك الظواهر التي تكشف عن تحول الأصوات الشديدة إلى الأصوات الرخوة تحت شروط معينة[١٣٠]، فقد ورد أن الخزف ما عمل من الطين وشوى بالنار فصار فخاراً واحدته خزفة، والخزب لغة في الخزف يمانية، وورد أيضاً أن اللازب واللاتب بمعنى واحد وأن قبيلة قيس تقول طين لاتب[١٣١]، وتقول بنو تميم فاضت نفسه بينما يقول أهل الحجاز وطيء فاظت نفسه، ونرى في إطار هذه الظاهرة أن الشين تقابل الكاف في بعض اللهجات، وجاءت بعض الشواهد على ذلك: عيناش بدلاً من عيناكِ، وجيدش بدلاً من جيدكِ، وورائش بدلاً من ورائكِ، والديش بدلاً من الديك... الخ[١٣٢]، وفي الشواهد السابقة نرى أن التنوع الذي يتراوح بين الشين والكاف في بعض اللهجات يتناظر في بعض التغيرات التي تطرأ على الصوامت الشديدة لتصبح صوامت رخوة كما حدث في تحول causa اللاتينية إلى chause الفرنسية[١٣٣]، وان قانون الأصوات الحنكية الذي صيغ في إطار علم اللغة المقارن فيما يتعلق باللغات السنسكريتية والإغريقية واليونانية هو قانون خاص بزمان ومكان معينين، أو على وجه أدق ما هو - كغيره من القوانين الصوتية - إلا صياغة لما حدث بالفعل في مكان وزمان محددين وليس هناك مبرر للاعتقاد بخطأ الرواة والقول بأن الشين ليست إلا صوتاً مزدوجاً أخطأ الرواة في وصفه كما يذهب الدكتور إبراهيم أنيس[١٣٤].

ثامناً: تنوعات تتناظر مع ظاهرة التغيرات الصرفية

تذخر المصادر اللغوية بتنوعات كثيرة تتناظر مع تلك الظواهر التي تكشف عن

(١٣٠) Yule, P. 170.

(١٣١) أنيس، في اللهجات العربية، ١٠٣.

(١٣٢) المرجع السابق، ص ١٢١.

(١٣٣) ليونز، ج ٢، ص ٢١.

(١٣٤) أنيس، في اللهجات العربية، ص ص ١٢١ - ١٢٥، وانظر: فندريس، ص ص ٧١ - ٧٢.

التغيرات التي تصيب البنية الصرفية، فقد وردت صيغ لجمع طريق هي : أطرق، وطرق، واطرقاء، وأطرقة، وطرقات[١٣٥]، ووردت صيغ متعددة لتأنيث (سكران) هي : سكرة، وسكرى، وسكرانة، ووردت صيغ متعددة للجمع وهي : سُكارى، وسكرى[١٣٦].

تاسعاً : تغيرات تتناظر مع ظاهرة التغيرات النظمية

تذخر المصادر اللغوية بالكثير من التنوعات التي تتناظر مع تلك الظواهر التي تكشف عن تغيرات تصيب البنية النظمية، وليس هناك أوضح من الأمثلة التي وردت مسكنة الأواخر كانها إرهاص بذلك التغير العميق الذي أصاب اللهجات العربية الدارجة حيث لا تستخدم العلامات الإعرابية، فهناك قراءات كثيرة تغفل الحركات الأخيرة للكلمات، وذلك مثل قراءة أبي عمرو: «ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» بتسكين الراء في يأمركم، ومن الشعر مثل قوله امرىء القيس :

فـالـيـوم أشـربْ غـير مستحقب

وقال جرير :

سـيروا بني العـم فـالأهـواز منـزلـكم   ونهر تـيري فـلا تـعـرفْكـم الـعـرب

وقول الأقيشر الأسدي :

وقـد بـدا هـنْـك مـن المئـزر

وغير ذلك من الشواهد القرآنية والأدبية[١٣٧].

وهناك أمثلة أخرى يمكن أن تكشف عن اضطراب في استخدام الحركات الإعرابية،

---

(١٣٥) الفيروزأبادي، ج ٣، ص ٢٤٩.

(١٣٦) المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٩.

(١٣٧) الفارسي، ج ٢، ص ص ٦٦ - ٦٧، وابن جني، ج ١، ص ٧٤، وسيبويه، ج ٤، ص ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

أو عن تنوعات لغوية كذلك الاختلافات بين الحجازين والتميميين في إعراب خبر ليس حيث ينصبه الحجازيون مطلقاً بينما يرفعه بنو تميم إذا اقترن حملا لها على ما[١٣٨].

والاختلاف بين النحاة في عمل ما النافية فخبرها عند الحجازيين منصوب، وعند بني تميم مرفوع[١٣٩].

وما نراه من نصب لهجة تميم تمييز كم الخبرية المفردة بينما توجب لهجات أخرى جره وتجيز إفراده وجمعه[١٤٠].

ومانراه من عمل لعل الجر عند عقيل، وعمل متى الجر عند هذيل، ونصب المبتدأ والخبر بليت عند بعض القبائل[١٤١].

الوحدة اللغوية في إطار التنوع

عند التقعيد للغة من اللغات ينظر اللغويون إلى ما يعد مستوى نموذجياً للغة، وتلعب العوامل الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية، والعسكرية دوراً في تدعيم تنوع معين في إطار التنوعات التي تذخر بها اللغة لتجعل منه مستوى نموذجياً تكون لـه الصدارة، وتكون بعض الاستعمالات العليا وفقاً له مثل اللغـة المكتوبـة، والمواقف الجـدية والـرسمية بصفة عامة، وهو التنوع الذي يعده بعض الناس النمط الوحيد الصحيح لهذه اللغة، الأمر الذي دفع بعض المجتمعات إلى أن تشكل هيئات رسمية تقوم بدور الرقيب على الاستخدام اللغوي وذلك مثـل الأكاديميـة الفرنسيـة التي تلتقي بشكل دوري وتقـرر ما إذا كـانت كلمة معينـة تعد من اللغة الفرنسية القياسية أم لا، وفي محاولاتها المحافظة على بقاء اللغة الفـرنـسية نقية تتخذ الأكاديمية الفرنسية كثيـراً قرارات ضـد الكلمات المقترضـة من اللغات الأخـرى، ولكنها مع ذلك لا تنجح كثيراً وعلى الأخص فيما يتعلق باللغة الفرنسية المنطوقة.

---

(١٣٨) المرادي، ج ٢، ٣٢٦.

(١٣٩) ابن عقيل، ج ١، ص ٣٠٢.

(١٤٠) ابن عصفور، ج ١، ص ٣١٢ - ٣١٣.

(١٤١) المرادي، ج ٢، ص ٣٢٤، وانظر: الفارسي، ج ٢، ص ص ١٣٨ - ١٣٩.

وعند التقعيد للغة العربية الفصحى لم يعتمد اللغويون العرب إلا على القرآن الكريم وطبقة الشعراء الجاهليين والمخضرمين على سبيل الإجماع، واختلفوا في طبقة الشعراء المتقدمين والإسلاميين، كما اعتمدوا على قبائل معينة هي أسد، وتميم، وقيس، وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، كما استشهدوا بأهل البادية حتى القرن الثالث الهجري ومنتصف القرن الرابع الهجري[١٤٢]، وكان اللغويون في مسلكهم هذا يضعون في حسابهم تجنب ظواهر التنوع اللغوي الذي رأوا في جوانب منه فساداً لغوياً[١٤٣]، وأكثر من ذلك فقد كان الاعتماد الرئيسي على القرآن الكريم والشعر العربي في مجال نظم الجملة، الأمر الذي وفر للنحاة مستوى لغوياً واحداً إلى حد كبير هو المستوى النموذجي ذو المكانة الأدبية والاجتماعية والسياسية والدينية، وجعل أوجه الاختلاف ضئيلة نسبياً، أو بعبارة أخرى أهمل النحويون مختلف التنوعات التي كانت في إطار اللغة العربية آنذاك، وركزوا جهودهم على المستوى الفصيح المتمثل في القرآن الكريم والشعر العربي الجاهلي والمخضرم، الأمر الذي وفر لهم وحدة لغوية مناسبة وإن لم يتقيد اللغويون بهذا المستوى وحده في إطار المفردات والأبنية الصرفية، ويفصح اللغوي العربي الكبير ابن جني عن هذا بقوله: «إن قلت: زعمت أن العرب تجتمع على لغتها، فلا تختلف فيها، وقد نراها ظاهرة الخلاف، ألا ترى إلى الخلاف في ما الحجازية والتميمية وإلى الحكاية في الاستفهام عن الاعلام في الحجازية، وترك ذلك في التميمية إلى غير ذلك؟.

قيل هذا من الخلاف، لقلته ونزارته، محتقر غير محتفل به، ولا معيج عليه، وإنما هو في شيء من الفروع يسير، فأما الأصول وما عليه العامة والجمهور، فلا خلاف عليه، ولا مذهب للطاعن به.

وأيضاً ـ فإن كل واحدة من اللغتين عدد كثير وخلف من الله عظيم، وكل واحد منهم

---

(١٤٢) انظر: البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ١، ص ص ٥ ـ ١٨.

(١٤٣) السيوطي، ج ١، ص ٢١١.

محافظا على لغته ، لا يخالف شيئاً منها ولا يوجد عنده تعاد فيها ، فهل ذلك إلا لأنهم يحتاطون ، ويقتاسون ولا يفرطون ، ولا يخلطون؟ .

ومع هذا فليس شيء مما يختلفون فيها على قلته وخفته إلا وله من القياس وجه يؤخذ به .

ولو كانت هذه اللغة حشواً مكيلاً ، وحثوا مهيلاً ، لكثر خلافها ، وتعادت أوصافها فجاء عنهم جر الفاعل ، ورفع المضاف إليه ، والمفعول به ، والجزم بحرف النصب ، والنصب بحروف الجزم بل جاء عنهم الكلام سدى غير محصل ، وغفلاً من الإعراب ، ولاستغنى بإرساله وإهماله عن إقامة إعرابه ، والكلف الظاهرة بالمحاماة على طرد أحكامه[١٤٤] .

الوحدة والتنوع في الشعر الجاهلي

في دراسة سابقة لنا «ديوان أوس بن حجر ـ معجم ودراسة دلالية» تجلت وحدة اللغة في الشعر الجاهلي في عدم وجود الظواهر اللغوية ـ الخاصة بتميم والتي ذكرها اللغويون ـ في شعر أوس مثل الكشكشة ، والعنعنة ، واختلاط القاف والكاف مما يقف شاهداً على وجود لغة موحدة للأدب العربي الجاهلي كان على الشعراء في العصر الجاهلي أن يرتفعوا إليها في شعرهم بعيداً عن لهجاتهم المحلية[١٤٥] ، ورغم ذلك ظهرت بصمات اللهجات المحلية (أو تأثير الأساس اللغوي للشعراء) على شعر الشعراء الجاهليين ، وذلك في الظواهر الآتية :

١ ـ في صيغ جمع التكسير وجدنا هناك اختلافات بين الشعراء[١٤٦] ، وهو ما يرجع كما ذكر ابن فارس[١٤٧] إلى الاختلافات بين لهجات القبائل العربية ، وذلك مثل : إخوة

---

(١٤٤) ابن جني ، ج ١ ، ص ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(١٤٥) النوري ، ديوان أوس بن حجر ـ معجم ودراسة دلالية ، ص ٤٣٨ .

(١٤٦) الشعراء موضع الدراسة هم : أوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص ، وعنترة ، وعمرو بن قميئة ، وكعب بن زهير ، وعروة بن الورد ، وعامر بن الطفيل ، والنابغة الذبياني ، والمتلمس ، وشعر هوزان .

(١٤٧) الصاحبي ، ص ٥٠ .

وإخوان، وأسد وأسود، وآصال وأُصُل، وبيوت وأبيات، وجبب وجباب، وحلوم وأحلام، وضواري وضراء، وإعداء وإعادي، ورماح وأرماح، وفتيان وفتية، وكور وأكوار، وملوك وأملاك، ونسوان ونسوة ونساء، وهضب وهضاب، وأكم وأكام، وحزان وحزاز، وأخلاق وخلائق، وأسياف وسيوف، وصحائف وصحف، وصخر وصخور، وأعاجم وعجم، وقارات وقور، وأنصل ونصال، وضوامر وضُمَّر وضُمْر، وقتود وأقتاد، وظعائن وظعن، وفوارس وفرسان، وخطاطف وخطاطيف، وسخال وسخل، ومطافيل ومطافل، وظهور واظهر، وأفنان وفنون، وأوعار ووعور، ونفوس وأنفس، والعور والعواوير وديار ودور، وأسهم وسهام، وقد تبين في بعض الحالات تداخل اللهجات أو الصيغ في معجم الشاعر الواحد[١٤٨].

٢ - وقد أظهرت بعض الكلمات المتناظرة عند الشعراء الجاهليين اختلافات صوتية يمكن أن ترجع إلى الاختلافات أو التنوعات الموجودة في إطار اللغة الواحدة، ويمكن أن ترجع إلى تأثير الأساس اللغوي للشاعر على إدائه الفصيح، وقد ترجع إلى تلك الحرية - التي لاحظها الدارسون قديماً وحديثاً - التي يتمتع بها الأديب عند استخدامه الفني للغة[١٤٩]، فعلى سبيل المثال وردت كلمة (نضاح) عند أوس بن حجر ووردت الكلمة بذات الدلالة ولكن مع أبدال الحاء (نضاخ) عند كعب بن زهير، ووردت كلمة القسطال عند أوس في حين وردت عند عامر وعبيد بنفس الدلالة ولكن بدون الحركة الطويلة بعد الطاء (القسطل)، ووردت كلمة السه عند أوس ووردت عند هوازن وعامر (الأست)، ووردت كلمة قديماً ظرف زمان عند أوس في حين وردت عند عمرو بن قميئة (قِدَماً)[١٥٠].

ووردت كلمة نِعْم وتفيد المدح في ديوان أوس بن حجر بينما وردت كلمة حبذا في ديوان عامر[١٥١].

---

(١٤٨) التوني، ديوان أوس بن حجر - معجم ودراسة دلالية، ص ٤٤٠ - ٤٤١.

(١٤٩) انظر: «الاستخدام الفني للغة» في هذا البحث.

(١٥٠) التوني، ديوان أوس بن حجر - معجم ودراسة دلالية، ص ١٤٤.

(١٥١) المرجع السابق، ص ٤٤٢.

٣ ـ كما وجدت وحدات معجمية مشتركة بين أوس بن حجر وغيره، واختلفت دلالتها عند أوس عنها عند غيره، وتعددت مظاهر هذا الاختلاف فهناك الاختلاف الذي يعبر عن علاقة الاشتمال وذلك مثل كلمة (صد) فهي عند أوس بمعنى أعرض، وعند عامر بمعنى ولى وفر، وكلمة (عزيز) بمعنى قوي عند عامر، وبمعنى الملك عند أوس، وهناك الاختلاف الذي يعبر عن علاقة الجزء والكل مثل كلمة (صفا) للدلالة على سطح الصخرة عند أوس، وللدلالة على الصخرة نفسها عند كعب، وهناك الاختلاف الذي يعبر عن علاقة المادي والمعنوي مثل كلمة (الحبل) للدلالة على ما فتل من ليف ونحوه ليربط أو يقاد به عند أوس، ووردت عند كعب للدلالة على الوصال، ووردت كلمة (حصى) عند أوس للدلالة على صغار الحجارة، ووردت عند عنترة للدلالة على العدد الكثير، وهناك الاختلاف الذي يعبر عن ارتباط الشيء بما يلزمه مثل كلمة (الغَبْر) عند أوس للدلالة على الطعام يجمع للسفر ولما يتعرض له الإنسان من أحداث، ووردت الكلمة عند عامر للدلالة على أحداث الدهر الذي يتعرض لها الإنسان، ومثل كلمة (مسحل) للدلالة على الحمار عند أوس، وللدلالة على الحديدة توضع تحت الحنك في اللجام عند عنترة[١٥٢].

ومظاهر التنوع في الصيغ وفي بعض الأصوات يمكن أن نضمها إلى ما ورد في التراث العربي من تنوع لغوي يتناظر مع مظاهر التغير اللغوي، أما مظاهر التنوع الدلالي الذي عرضنا له في الفقرة السابقة فيمكن أن يرد بعضه إلى الإبداع الفني للشعراء، ويرد بعضه الآخر إلى التنوع اللغوي في إطار اللغة الواحدة، ومع ذلك فتتناظر هذه التنوعات الدلالية إجمالاً مع مظاهر التغير الدلالي التي عرض لها بعض الباحثين وصنفوها على النحو التالي:

١ ـ تضييق المعنى، ومثاله تحول معنى (meat) في اللغة الإنجليزية وقد كانت تعني الطعام بشكل عام إلى معنى ضيق ينحصر في نوع واحد من الطعام هو اللحم.

٢ ـ توسيع المعنى، ومثاله تحول معنى (bird) في اللغة الإنجليزية وقد كانت تعني الفرخ الصغير إلى كل أنواع الطيور كبيرها وصغيرها.

(١٥٢) المرجع السابق، ص ص ٤٤٢ ـ ٤٤٤.

٣ ـ الاستعارة، ومثاله تحول معنى كلمة (bitter) وقد كانت تعني في اللغة الإنجليزية قديماً عضة أو لسعة إلى معنى مر.

٤ ـ علاقة الكل والجزء، ومثاله تحول معنى (stove) وكانت تعني المطبخ بأكمله إلى معنى الموقد.

٥ ـ المبالغة أو تقوية المعنى، ومثاله التغير في كلمة (astound) بمعنى صعق وكان معناها الأقدم أصيب بحادثة.

٦ ـ أضعاف المعنى، ومثاله التغير في كلمة (kill) بمعنى يضرب وكان معناها الأقدم يعذب.

٧ ـ الانتقاء بالمعنى، ومثاله التغير في كلمة (knight) بمعنى فارس وكان معناها الأقدم ولد.

٨ ـ الانحطاط بالمعنى، ومثاله التغير في كلمة (knave) بمعنى خادم وكان معناها الأقدم ولد.

ويجب أن نأخذ في الحسبان أن الأنماط السابقة ليست جامعة مانعة فيمكن أن نضيف إليها أنماطاً أخرى حسبما يكشف عنه البحث والدرس، وقد تكون هناك تحولات دلالية لا تندرج تحت أي نمط من هذه الأنماط نظراً لأن المعنى الجديد قد لا يمتّ للمعنى القديم بأي صلة(١٥٣).

---

(١٥٣) انظر: Palmer, P.P. 11-13، وانظر أيضاً: صالح، ص ص ٥٢ ـ ٦٤، وأيضاً: ابن الجوزي، ص ص ٤٧ ـ ٥٣، وأيضاً: فندريس، ص ص ٢٤٦ ـ ٢٧١.

(٤) الحاجة الاجتماعية والتهجين والتوليد اللغويان

عندما تتلاقى مجموعات من الناس يتكلمون لغات مختلفة لأول مرة ينشأ أحياناً نظام لغوي محدود للوفاء بالاحتياجات الاساسية المشتركة، ويعرف هذا النظام المحدود باللغة الهجينة pidign، وفي ظروف أخرى يمكن أن تصبح اللغة الهجينة أعمق وأكثر اتساعاً وتأخذ في النمو لتكون لغة مولدة، وبمرور الوقت لايمكن تمييزها عن اللغات الأخرى المشهورة في العالم(١٥٤).

وتوصف اللغة الهجينة عادة بأنها لغة ثانوية يستخدمها أولئك الذين يحتاجون إليها في التواصل بينهم فيما يتعلق بأغراض محدودة، ولهذا السبب تتجه اللغات الهجينة إلى أن تنشأ في الطرق التجارية، وذلك مثل ساحل افريقيا الغربية وفي البحر الكاريبي وجزر المحيط الهادي(١٥٥)، وعلى الأخص في المناطق التي نزلها الاستعمار الأوروبي، وأقام مستعمرات فيها، فقد كان يجمع كثيراً من الأهالي الوطنيين لاستغلالهم في مزارعه الشاسعة، وكان هؤلاء الوطنيون عادة من بقاع شتى، وجنسيات شتى، وكانت لغاتهم مختلفة، ونظراً لطول أمد احتكاك مثل هذه الجماعات بعضها ببعض من جهة واحتكاكهم جميعاً بالمستعمر من جهة أخرى نشأت اللغات الهجينة، ويعتقد أن هناك حوالي ٦ ـ ١٢ مليون نسمة يتكلمون لغات هجينة، وحوالي ١٠ ـ ١٧ مليون نسمة يتكلمون لغات مولدة (وهي لغات هجينة اكتسبها جيل لاحق بوصفها لغة أم)(١٥٦).

ونتيجة للحقائق التي تتضمنها الفقرة السابقة تأخذ اللغة الهجينة عادة لغة (أو أكثر) نقطة نشأة لها، فالعديد من اللغات الهجينة في المحيط الهادي وأفريقيا الغربية مؤسسة على اللغة الإنجيليزية بينما، هناك عدد منها في البحر الكاريبي مؤسس على اللغة الفرنسية، وفي مناطق أخرى توجد لغات هجينة مؤسسة على اللغة البرتغالية(١٥٧).

(١٥٤) ليونز، ج ١، ص ص ٤١ ـ ٤٢.

(١٥٥) انظر: Yule, P. 187; Bynon, P. 257.

(١٥٦) Yule, P. 187.

(١٥٧) Aitchison, P. 192.

وتتميز اللغة الهجينة بغياب آية تعقيدات مورفولوجية أو نـظمية، وتتميـز كذلـك بالمفردات المحدودة، وتأخذ المورفيمات الوظيفية عادة مكان المورفيمات التصريفية الموجودة في اللغة الأساسية، فعلى سبيل المثال في لغة الـ Tok Pisin بدلاً من تغيير صيغة you إلى your للدلالة على الملكية كما في التعبيـر (your book) تستخدم هذه اللغة الهجينة المؤسسة على اللغة الإنجليزية الصيغة (bilong)، وهي مأخوذة من الصيغة الإنجليزية (belong) وتغير رتبة الكلمة لتنتج عبارة مثل (buk bilong yu) = كتابك[(١٥٨)].

وكثير من الكلمات في الـ Tok pisin مأخوذ من تعبيرات في لغات أخرى، فثمة كلمة واحدة تستخدم لـ (خراب)، و (يهدم) هي bagarimap وهي مشتقة من العبارة الإنجليزية bugger him up، وضمير المتكلمين في هذه اللغة الهجينة yumi مأخوذ من دمج الضميرين الإنجليزيين you، و me، ويختلف نظم الجملة في اللغة الهجينة عن نظم الجملة في اللغة التي أسس عليها، ويمكن القول بأن معظم اللهجات الهجينة التي نعرفها تبدو غير ناضجة ومفرطة في بساطتها بالمقارنة مع اللغات الأخرى التي تبدو أكثر تعقيداً. وفيما يلي سنعرض لإحدى اللغات الهجينة وهي ال Tok Pisin الموجودة في نيوغينيا، وتعرف كـذلك بلغـة نيوغينيا، أو اللغة الهجينة الميلانيزية، أو الميلانيـزية الجـديدة، وهي مـوجودة منذ قرن تقريباً[(١٥٩)].

ضمير المتكلم mi مأخوذ من الضميرين: I، و me في اللغة الإنجليزيـة، وضمير المخاطب Yu مأخوذ من الضمير الإنجليزي you (لاحظ أن الاعتماد الأساسي يكون على نطق الإنجليزية لا هجائها).

وبالنظر إلى الجملة البسيطة: mi lukim yu وتقابل في اللغة الإنجليزية (I see you) نلاحظ أن الترتيب في اللغة الميلانيزية يتناظر مع الترتيب الموجود في اللغة الأنجليزية، وان الفعل luk مأخوذ من الفعل الإنجليزية look، وأن im علامة التعدية في الفعل وهي مأخوذة

(١٥٨) Yule, P. 187 ·

(١٥٩) Aitchison, P.P. 193-205 ·

من him، وتستخدم اللغة الهجينة الميلانيزية للجمع النهاية pela، وهي مأخوذة من الكلمة الإنجليزية fellow (حيث لا تفرق هذه اللغة بين /f/، و /p/)، وعليه فإن ضمير المتكلمين هو mipela، وضمير المخاطبين yupela وتستخدم هذه اللغة كلمة واحدة (bilong) مأخوذة من الكلمة الإنجليزية (belong) بدلاً من صيغ الملكية العديدة في اللغة الإنجليزية وهي my، و his، و her، و their، و its، وعليه فإن «أبي» في هذه اللغة تكون papa bilong mi، و «بيتنا» تكون haus bilong mipela، و «بيتكم» تكون haus bilong yupela، وقد يرد على بال المرء أن هذا يقابل رطانة الأجانب الذين كانوا موجودين في فترة من الفترات في مصر «الباب بتاع أنا»، و «البيت بتاع احنا»، و «البيت بتاع انتوا» مما يقرب من اللهجة العربية الدارجة في القاهرة وهو ما يجب على القارىء أن يستبعده تماماً نظراً لأنه لا علاقة بين اللغة الهجينة ورطانة الأجانب[١٦٠].

ولم تلق اللغات الهجينة اهتماماً في القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وكان ينظر إليها على أنها لغات مكسرة أو لغات سخيفة، وكان الباحثون يتواصون فيما بينهم بعدم دراستها مما تسبب في ضياع فرص تسجيل هذه اللغات ورصد اتجاهات النمو والتغير فيها، ولم تحظ هذه اللغات باهتمام الباحثين إلا في السنوات العشرين الأخيرة فحسب، الأمر الذي أفسح المجال لعدد من النظريات المتضاربة (فيما يتعلق بالخطوات التي تنشأ من خلالها هذه اللغات) في غياب الملاحظة الدقيقة والتسجيلات الفعلية، والدراسات العلمية اللغوية، وفيما يلي عرض لهذه النظريات[١٦١]:

النظرية الأولى: نظرية ذات نزعة قومية متطرفة (شوفينية) ترى في اللغات الأوروبية علوا وتعقيداً بحيث لايستطيع المواطنون الأصليون في تلك المناطق تعلمها مما يدفعهم إلى تبسيط هذه اللغات. وهي نظرية تتضمن مزاعم لاتقوى على الصمود،

---

(١٦٠) وذلك بخلاف ما يذهب إليه فندريس، انظر فندريس، ص ص ٣٦٥ - ٣٦٦.

(١٦١) Aitchison, P.P. 194-197.

فالمعروف ـ بناء على دراسات فعلية ـ ان اللغات متكافئة في التعقيد البنيوي، ولا فرق من الناحية البنيوية بين لغة أكثر الشعوب حضارة، وبين لغة أقل الشعوب حضارة في عصرنا هذا[١٦٢].

النظرية الثانية: ويمكن أن نطلق عليها اسم نظرية التعليم الناقص، وتبعاً لها تمثل اللغة الهجينة أفضل محاولات تعلم الناس لغة لا تشبه لغتهم على الإطلاق، وعندما يقومون بذلك ينتجون صورة مبسطة لكلام يشبه ذلك الكلام الذي ينتجه الأطفال أثناء تعلمهم لغتهم الأم.

النظرية الثالثة: وتفترض أن اللغة الهجينة تمثل محاولات غير واعية من قبل أولئك المتكلمين الأصليين للغة الأساس لتبسيطها بطرق يمكن أن تجعلها أكثر سهولة بالنسبة لأولئك المتكلمين غير الوطنيين، ويربطون بينها وبين كلام الإنجليزي الأصلي (في لندن مثلاً) عندما يكلم أجنبياً فيبالغ في تبسيط لغته حتى يمكنه إفهامه أمراً من الأمور.

النظرية الرابعة: ويطلق عليها اسم نظرية الأصل الواحد، وتفترض أن أساس اللغات الهجينة في العالم اللغة البرتغالية، وتستشهد على ذلك بوجود كلمات كثيرة في اللغات الهجينة جاءت من اللغة البرتغالية، ولكن هذه الشواهد غير كافية، فقد يرجع ذلك إلى النشاط البرتغالي الاستعماري والتجاري في تلك المناطق فحسب.

النظرية الخامسة: وتعتمد على ما يسمى بالعالميات اللغوية، وترى أن احتكاك لغات عديدة يؤدي إلى ظهور العالميات اللغوية أي ما تشترك فيه اللغات جميعاً على السطح، ومن ثم تعج اللغات الهجينة بما تشترك فيه اللغات جميعاً، وتظهر هذه الجوانب على السطح بخلاف اللغات الأخرى الطبيعية.

ولكننا نرى أن ميلاد اللغة الهجينة لدوافع اجتماعية تتمثل في الحاجة إلى لغة مشتركة بين المجموعات المقهورة ذات اللغات المختلفة من جهة وبينهم وبين المستعمر كذلك من

(١٦٢) ليونز، ج ١، ص ص ٣٨ ـ ٤٣.

جهة أخرى، ومن ثم كانت اللغة التي أخذت عناصرها من مصادر عديدة تكون لغة المستعمر مصدراً أساسياً فيما بينها، وربما لعبت العوامل المتضمنة في النظريتين الثانية والثالثة دوراً في ميلاد اللغة الهجينة، بيد أنه يحيط كثير من الشك حول متضمنات النظريات الأخرى.

ونلاحظ أن اللغات الهجينة لا يمكن أن تخترع عفو اللحظة، ولكنها تأخذ فترة طويلة أثناء نشأتها، وهي ليست مجرد لغات أوروبية مكسرة، ولا تقوم على عناصر اللغة الأساس (لغة المستعمر) وحدها، فهي تأخذ منها ومن اللغات الوطنية الموجودة في المنطقة، ومن لغات أخرى خارج المنطقة كذلك، وهي ذات نظام منفصل هويته من ذاتها، وهي أسهل من حيث التعلم.

ونلاحظ أن اللغة الميلانيزية الجديدة تتميز عن اللغة الإنجليزية فهي تفرق بين ضمير المتكلمين الحاضرين (انا وآخرون حاضرون): yumi، وضمير المتكلمين غير الحاضرين (انا وآخرون غير حاضرين): mipela، وتميز بين الأفعال المتعدية والأفعال اللازمة بوجود النهاية im في الطائفة الأولى دون الطائفة الثانية وذلك كما في:

yu bagarapim ka (أنت حطمت سيارتي) ka bilong mi i bagarap (سيارتي تحطمت) bilong mi ولا تميز اللغة الميلانيزية الجديدة بين [f]، و[p]، ولا بين s، و[ʃ]، و[tʃ].

ونظام اللغة الميلانيزية كغيرها من اللغات الهجينة أكثر بساطة، ومن ثم فهي أسهل تعلماً، وعدد عناصرها أقل من حيث الوحدات الصوتية، والكلمات والأبنية، فعدد الحركات فيها خمس حركات فحسب بينما حركات اللغة الإنجليزية كثيرة ومتنوعة(١٦٣)، والأدوات فيها قليلة فهي لا تتعامل إلا مع ثلاث أدوات هي: bilong للملكية أو الإضافة، وتقابل استخدام of في اللغة الإنجليزية، و long للغاية، وتقابل استخدام to في اللغة الإنجليزية، و wantain للوسيلة، وتقابل استخدام with في اللغة الإنجليزية بينما الأدوات

(١٦٣) هناك اثنا عشرة حركة بسيطة في اللغة الإنجليزية بخلاف العديد من الحركات المزدوجة انظر: Ezzat, P.P. 184-208

في اللغة الإنجليزية كثيرة وتضم by، for، down، up . . . الخ، بالإضافة إلى أنها تميل إلى إعطاء الصيغة الواحدة معنى واحدا.

ولا تميز اللغة الميلانيزية الجديدة بين أفعال تدل على زمن سابق أو زمن حاضر أو زمن مستقبل بل تستخدم عند الحاجة ظروفاً لبيان الزمن.

ولا يوجد اطار للجمل في هذه اللغة، وتتجاور الجمل مما يترتب عليه طولها وامتدادها(١٦٤).

وقد يرى بعضنا في اللغات الهجينة لغات بسيطة وواضحة، بيد أن وضوحها وبساطتها لها جوانب سلبية، فتكتظ تلك اللغات بأوجه اللبس والغموض والتداخل والقصور، بيد أنها إذا ما دفعت بها الظروف لتكون لغة أمًا لجيل لاحق فحينئذ تتحول إلى لغة طبيعية مولدة، وفي تحولها هذا تزداد مجالات استخدامها اتساعاً، وتزداد مفرداتها، وتزداد الدقة في استخدامها، وتتعقد أبنيتها، وهذه الظواهر تحدث تدريجياً بحيث لا يمكن أن تقيم حداً فاصلاً بين اللغة الهجينة واللغة المولدة الطبيعية، ويصحب ذلك كله زيادة في سرعة الكلام، الأمر الذي يجلب مظاهر تغير لغوية عديدة مثل المماثلة، والقلب المكاني، وسقوط النهايات . . . الخ، بحيث يرى المراقب من الخارج أن كلام الجيل الأسبق أكثر وضوحاً، وتدخل مفردات عديدة من لغة الأساس واللغات الوطنية الأخرى الموجودة في المنطقة بل وخارجها، وتدخل اللغة الهجينة مورفيمات الزمن، فاللغة الميلانيزية دخلها في مرحلة تحولها إلى لغة طبيعية مولدة مورفيم الزمن الماضي bin (مأخوذ من الكلمة الإنجليزية been)، ومورفيم الزمن المستقبل bainbai (مأخوذ من التعبيرة الإنجليزية by and by)، وفي النهاية يدخل الأطار في صياغة الجمل والعبارات(١٦٥).

(١٦٤) انظر أمثلة أخرى في: bynon, P.P. 256-261

(١٦٥) Aitchison, P. 202-205

(٥) الحاجة الاجتماعية وموت اللغات

المراد بموت اللغة في الدراسة التاريخية للغة هو انحصارها وتخلي الناس عن استخدامها. وليس هناك شبه بين موت اللغة وموت الكائن الحي وفق هذا المنظور إلا على نحو مجازي، وكان الباحثون في القرن التاسع عشر يتحدثون عن اللغات كما لو كانت كائنات عضوية، عليها أن تسير وفق دورة حياة معينة تبدأ بالميلاد وتنتهي بالهرم والضعف مروراً بمرحلة الفتوة والشباب إلى أن تلفظ أنفاسها وتموت، ولم تعد لدينا هذه القناعة في القرن العشرين بعد سلسلة من البحوث اللغوية الأصيلة التي أجريت في مناطق عديدة من العالم وعلى يد باحثين لغويين جادين، ولا يراد بموت اللغة ما يحدث من تحول اللغات في إطار الأسرة اللغوية الواحدة كتحول اللاتينية إلى الفرنسية، والإسبانية، والإيطالية والسردانية، فهذا التحول تغير تدريجي عبر الزمن[١٦٦]، ولكننا نريد بموت اللغة هنا الاختفاء الكامل للغة، وتخلي الناس عن استخدامها، وهو ما لا يكون بالتوقف عن الكلام ولكن باستبدال لغة بأخرى لأسباب سياسية واجتماعية، حيث تكون اللغة المتبناة هي اللغة ذات المكانة العليا من الناحية السياسية والاجتماعية، وفي هذه الحالة سينشأ الجيل الأحدث وقد تعلم في طفولته اللغة القديمة باعتبارها لغة أم لهم، بيد أنهم سوف يتعرضون في سن صغيرة نسبياً للغة أخرى أكثر شيوعاً وأكثر فائدة من الناحية الاجتماعية ولا سيما في المدرسة[١٦٧].

وفي هذ السياق هناك أمران محتملان، الأول: أن المتكلمين باللغة الأقدم سوف يواصلون التكلم بها بيد أنهم يقترضون تدريجياً صيغاً وأبنية من اللغة المهيمنة اجتماعياً إلى أن يصل الأمر إلى تماثل اللغتين القديمة والحديثة، وإلى أن يكون من غير الممكن تمييز اللغة القديمة بوصفها لغة مختلفة، وهذا الاحتمال يعد الشكل الأكثر تطرفاً للاقتراض اللغوي (borrowing) ويشمل كل جوانب اللغة، وفي هذه الحالة يبدو أن اللغة قد قررت الانتحار

(١٦٦) انظر: حجازي، مدخل إلى علم اللغة، ص ١٢٣.

(١٦٧) وفقاً لتلك المبادىء سادت العربية مصر بعد تعريب الدواوين انظر: حجازي، اللغة العربية عبر القرون، ص ٤٩.

فهي تهدم نفسها ببطء عن طريق جلب أصوات وصيغ وأبنية أكثر وأكثر من اللغة ذات المكانة العليا حتى تدمر هويتها الذاتية، والاحتمال الثاني: أن اللغة القديمة ينحصر استخدامها في نطاق أضيق في الوقت الذي يمتد استخدام اللغة الحديثة إلى مجالات إضافية، ويزداد انحصار اللغة القديمة لحساب اللغة الحديثة شيئاً فشيئاً إلى أن تطرد اللغة الحديثة اللغة القديمة التي تختفي من ساحة الاستخدام كلية[١٦٨].

وتحدث الحالة الأولى (انتحار اللغة) كثيراً عندما توجد لغتان تشبه الواحدة منهما الأخرى على نحو واضح، وفي هذا الحالة يكون من السهولة أن تستعير اللغة الأقل نفوذاً أصواتاً، ومفردات، وأبنية من اللغة ذات المكانة العليا والتي تلقى استحساناً اجتماعياً متعاظماً، وبمرور الوقت وبتزايد عملية الاقتراض تمحى اللغة القديمة، ومن الحالات المعروفة جيداً في انتحار اللغات تلك العمليات التي تحدث في تطور اللغة المولدة بحيث يلتهمها في النهاية سلفها الأساسي، فنظراً لأن اللغة المولدة تكون محدودة من حيث النطاق الجغرافي بينما تكون اللغة الأساس عادة ذات مكانة اجتماعية أعلى وذات حدود جغرافية أوسع[١٦٩] فإن هناك احتمالاً أن يوجد ضغط على متكلمي اللغة المولدة لأن يحركوها إلى الوراء في اتجاه اللغة الأساس، وتعرف هذه العملية بعملية نقص التوليد (decreolization).

وتبدأ عملية نقص التوليد - كما في الحالات الأخرى من الاقتراض - في الأبنية والأصوات التي يوجد فيها تشابه بين اللغة الأساس واللغة المولدة، ويحدث هذا في سلسلة من الخطوات الصغيرة، وقد درس الباحث «بيكرتون» (Derek Bickerton) هذه الظاهرة في إحدى القرى التي تتكلم لغة مولدة مؤسسة على اللغة الإنجليزية وهي: (Guyanan Language) ويسكن هذه القرية حوالي ١٥٠٠ نسمة، واتضح في بحثه أن اللغة المولدة تصبح تدريجياً منقوضة التوليد حيث تسير إلى الوراء خطوة خطوة في اتجاه اللغة الإنجليزية، ففي اللغة المولدة تستخدم fi، و fu حيث تستخدم اللغة الإنجليزية كلمة to، وبمرور الأيام نجد أن اللغة المولدة تستخدم بجوار هاتين الصيغتين (fi، و fu) صيغة أخرى أقرب إلى

(١٦٨) انظر: Aitchision, P. 209، وانظر أيضاً: فندريس، ص ٣٥٣.

(١٦٩) Bynon, P.P. 256-257.

اللغة الإنجليزية وهي (tu)، ونجد تذبذباً في الاستخدام بين الصيغتين القديمتين والصيغة الحديثة مع تزايد في استخدام الصيغة (tu) على حساب الصيغتين القديمتين، وفي النهاية يخلو المجال لاستخدام الصيغة الحديثة (tu) الأشد ارتباطاً باللغة الإنجليزية(١٧٠).

ونجد هذه الظاهرة أيضاً في التنوعات الحضرية في اللغة المولدة المعروفة باللغة الميلانيزية الجديدة (Tok Pisin) ونظراً لأن اللغة الإنجليزية في بعض البيئات الناطقة بهذه اللغة هي لغة التعليم في الجامعات، ولغة المؤسسات التجارية مثل البنوك تتدفق الكلمات والأبنية الإنجليزية على اللغة المولدة بصورة متزايدة، وتتسلل مئات الكلمات الإنجليزية إليها، وعلى الأخص في السياقات التي تفتقد فيها هذه اللغة (Tok Pisin) المفردات الكافية الخاصة بها، وحتى في منطقة نفوذ تلك اللغة المولدة نرى الكلمات والصيغ والأبنية الإنجليزية تغزوها بغزارة، فمثلاً في المجلس التشريعي في العاصمة (Port Moresby) حيث تعد تلك اللغة المولدة اللغة الرسمية للتعامل البرلماني نجد اللغة الإنجليزية تغزوها في عقر دارها، وذلك لما تتطلبه الانتقادات السياسية من اقتراض كثيف من اللغة الإنجليزية نظراً لخلو اللغة الوطنية من المصطلحات السياسية التي تتطلبها المناقشات البرلمانية. ومن الملاحظ أنه في إطار عملية نقض التوليد هذه يوجد قدر هائل من التذبذب بين الصيغ القديمة والصيغ الحديثة، وهو تذبذب قد يكون في نطق الشخص الواحد بل في إطار الجملة الواحدة إلى أن نصل إلى مرحلة يكون من الصعب فيها تمييز اللغة التي يتكلم بها المواطن -هل هي لغته المولدة الوطنية أم اللغة الإنجليزية،وفي هذه المرحلة تكون اللغة الوطنية قد انتحرت(١٧١).

أما اغتيال اللغة فتموت اللغة بفعل زحف لغة أخرى الأمر الذي يتسبب عنه تراجعها وانحسارها، وفي النهاية موتها بتخلي الناس عنها، وثمة آليات يتم من خلالها اغتيال اللغة، ففي البداية يكون تزايد جيل من المتكلمين كانوا في طفولتهم ذوي مهارة متساوية في لغتين إحداهما قديمة تعلموها من آبائهم في طفولتهم، والأخرى جديدة تعرضوا

(١٧٠) Aitchision, P.P. 210-211.

(١٧١) Aitchision, P.P. 212-216

لها في سن صغيرة نسبياً عند دخولهم المدرسة وهي لغة ذات مكانة اجتماعية عليا، وعندما يكبر هؤلاء الأطفال يتخلون تدريجياً عن النطق باللغة الأقدم، وقد لا يستخدمونها إلا عند زيارة أقاربهم الأكبر سناً، وبمرور الوقت يبدءون في نسيان لغتهم الأم بيد أنهم يظلون قادرين على التحدث بها وعلى استخدام عدد محدود من أنماط الجملة.

وثمة دراسة قامت بها نانسي دوريان (nancy Dorian) عن موت اللغة الغيلية (Scot-tish Gaelic language)، وهي لغة انحسرت من منطقة (Highland Scotland) التي كانت منطقة نفوذ لها، وتركزت دراستها على ثلاث قرى تمثل جيوب مقاومة، أو بقايا وجود لها، فاتضح وجود جيل يتراوح عمره بين السبعين والثمانين وهو الجيل الذي تعلم اللغة الغيلية كلغة أم، وفي بعض القرى يمكن أن ينضم إلى هذا الجيل اناس في بدايات الخمسينات من العمر ينظرون إلى اللغة الغيلية على أنها لغتهم الأم أما الأجيال الحديثة فهي ثنائية اللغة، وبعضهم يتكلم الانجليزية (اللغة الأحدث) أفضل مما يتكلم اللغة الغيلية، ومعظمهم يدركون ان لغتهم الغيلية في وضع أدنى مما كانت في حياة أسلافهم، وهم على وعي بوجود فجوات في مفرداتهم، ويعرفون أن من يكبرونهم سناً كان لديهم كلمات أكثر - للأشياء الموجودة حولهم - مما لديهم في الوقت الراهن.

ولاحظت دوريان (Dorian) أن مستوى الإجادة في استخدام اللغة الغيلية يتناسب مع السن، فالأكبر سناً أكثر إجادة إلى أن نصل إلى الأجيال الاحدث فنجد لغتهم الغيلية مضطربة، وأقل تعقيداً حيث تميل إلى محو الفوارق الدقيقة بين الأبنية، ونجد بعض مظاهر الفوضى في أدائهم اللغوي.

وبعد ذلك نجد أنفسنا أمام جيل لا يعرف سوى كلمات غيلية متفرقة عادة ما تكون نباتات وأطعمة وطنية وأسماء مدن، وفي هذه المرحلة يمكن أن نقول إن اللغة قد ماتت أو على نحو أدق إن اللغة الإنجليزية (وهي اللغة ذات الهيمنة الاجتماعية والسياسية في تلك المنطقة) قد اغتالتها(١٧٢).

---

(١٧٢) Aitchision, P.P. 216-218 .

وثمة بحث آخر قام به نورمان دينسون (Norman Denison) تناول فيه موت اللغة الألمانية في جماعة لغوية ثلاثية اللغة، فكانت هذه الجماعة تستخدم ثلاث لغات: اللغة الإيطالية كلغة رسمية تستخدم في الكنيسة وفي المدارس، واللغة الفرولية (Friulian) كلهجة محلية تستخدم في الشارع وكانت اللغة الألمانية لغة رئيسية مجاورة للغتين السابقتين، وخلال القرن العشرين حدث تراجع تدريجي لمناطق نفوذ اللغة الألمانية لتنحصر في الاستخدام المنزلي باعتبارها لغة ألفة بين أفراد الأسرة، بيد أن هذا الاستخدام المحدود بدأ في التلاشي كذلك نظرا لأن كثيرا من الآباء يشعرون بأنه من الأفضل لمستقبل أطفالهم أن يتحدثوا معهم بالإيطالية، وأصبحت الأسر التي تتكلم بالإلمانية تواجه كثيرا من الانتقادات وعليه فيمكن أن تموت اللغة لسبب بسيط الا وهو عدم وجود حاجة إليها [١٧٣].

وعليه فإن اللغة لا تلفظ أنفاسها ببساطة لكبر سنها أو لضعفها وتحللها، وإنما لأن لغة جديدة قد حلت محلها، وهذه اللغة الجديدة تكون ذات مكانة أعلى من الناحيتين الاجتماعية والسياسية ولا يعد موت اللغات سوى ظاهرة اجتماعية تسببها حاجات اجتماعية، وليس هناك شاهد على أن هناك ضعفا في بنية اللغة المحتضرة أو نقصا جوهريا فيها أدى إلى احتضارها، واللغة الجديدة التي تحل محل اللغة القديمة ليست أفضل من جهة البنية الأساسية (وليست أسوأ) من اللغة القديمة، فاللغة القديمة لا تموت إلا لأنها لا تفي بالحاجات الإجتماعية للجماعة التي تتحدث بها [١٧٤].

---

(١٧٣) ibid, P. 220 .

(١٧٤) هناك أمثلة عديدة أخرى لموت اللغات انظر: فندريس، ص ص ٣٥٢ - ٣٥٨.

الفصل الرابع

العلل السيكولوجية

(١) التحليل والتركيب اللغويان *

عندما يتكلم الإنسان فإنه يركب وحدات صغيرة معا ليكون وحدات أكبر، ويُرَكِّب تلك الوحدات الأكبر ليكون وحدات أكبر منها وهكذا، وتستمر عملية التركيب هذه على مستوى اللاوعي حيث يمارس المتكلم نشاطه هذا وفق نظام من القوانين اكتسبه في فترة الطفولة أو بالأحرى في المرحلة الحرجة[١٧٥] التي تقع بين سن السنتين وقبيل المراهقة، أما المستمع فيقوم بعملية عكسية (عملية تحليل للوحدات الكبيرة إلى مكوناتها الأصغر فالأصغر) وفق نظام من القوانين اكتسبه كذلك في فترة الطفولة أو بالأحرى في المرحلة الحرجة من حياته، والشاهد على قيام المستمع بتقسيم كتلة الكلام إلى أقسام أصغر فأصغر أنه يستطيع التفرقة بين مدلولي كلمتين مثل طين وتين، ولا يكون ذلك إلا بتحليل مكونات الكلمتين إلى الوحدات الصوتية المكونة لها، وتحليل الوحدة الصوتية الأولى في كل منهما إلى ملامحها الصوتية المكونة لها[١٧٦]، الأمر الذي ينتهي به إلى وجود ملمح الإطباق في الأولى، وملمح الترقيق في الثانية مما يصل به إلى التمييز بين الكلمتين.

وعمليات التركيب التي يقوم بها المتكلم بشكل غير واع مستمرة طول الوقت ـ بالتوازي مع عملية التحليل التي يقوم بها المستمع ـ فقولك: «قلت لعلي إنني أخبرت أنه جاء الطالب مستبشرا» من المرجح أنها مرت بالخطوات التركيبية التالية:

١ ـ جاء الطالب.

٢ ـ جاء الطالب مستبشرا.

٣ ـ أخبرت أنه جاء الطالب مستبشرا.

(*) تتداخل تحت هذا العنوان بعض العلل الفسيولوجية والسيكولوجية نظراً لصعوبة الفصل بينهما.

(١٧٥) عن المرحلة الحرجة انظر: ليونز، ج ٢، ص ص ٩٨ ـ ١٠٥.

(١٧٦) الوحدة الصوتية حزمة من الملامح الصوتية المميزة لها انظر: ليونز، ج ١، ص ص ١٢٤ ـ ١٣٤.

٤ ـ قلت لعلي إنني أخبرت أنه جاء الطالب مستبشرا .

وعلى مثل هذا النحو يستمر نشاط المتكلم والمستمع تركيبا وتحليلا للإشارات اللغوية وفق النظام اللغوي الذي اكتسبه كل منهما في مقتبل حياتهما (١٧٧).

ويمكن أن تتمخض تلك العمليات عن تغير لغوي إذا ما توافرت شروط تحقق اللبس والخطأ، وقد نشأت في اللغة الانجليزية كلمة newt [noot] (سحلية) من التحليل الخاطىء للوحدة الكبيرة (أداة تنكير+ اسم) an ewt إلى newt + a ، وغني عن البيان ذلك اللبس الـذي أدى إلى الخطأ، وبطبيعة الحال لم يظل ذلك الخطأ خطأ فقد أصبح واقعا لغويا مسلما به وما كان صوابا في يوم من الأيام أصبح في ذمة التاريخ (١٧٨) .

وثمة علل فسيولوجية تقع وراء بعض ظواهر التغير اللغوي نظرا لأنه قد يصعب على المرء أن يكرر أصواتا متماثلة، كما قد يصعب عليه أن ينتقل من ملمح إلى آخـر، وتؤدي الصعوبة الأولى إلى ما يعرف بالمغايرة، وتؤدي الصعوبة الثانية إلى ما يعرف بالمماثلة .

فالمغايرة تؤدي إلى أن تصبح الأصوات المتطابقة أو المتقاربة أصواتا مختلفة، وعلى هذا النحو تحولت كلمة corsar في الانجليزية إلى corsan(قرصان) (١٧٩) .

أما المماثلة فتؤدي بالأصوات المتعاقبة إلى أن تتطابق أو أن تكون أكثر شبها من جهة المخرج الصوتي أو الصفات الصوتية، وتشير إلى التأثير الحادث من قطعة صوتية على نطق قطعة صوتية أخرى بحيث تكون القطعتان الصوتيتان بعـد التأثير متطابقتين أو أكثر قربا في المخرج، أو الملامح الصوتية الأخرى، أو كليهما معا، وينشأ هذا عن عـدم القدرة عـلى التحول من ملمح إلى آخر بشكل مفاجىء بين وحدة صوتية وأخرى وعن امتداد ملمح معين إلى ما وراء القطعة الصوتية الخاصة به (ومن ثم تكون العلة فسيولوجية)، وقد تأتي المماثلة عن طريق استحضار ملمح صوتي قبل موعده المناسب، الأمر الذي يبدو فيه أن

(١٧٧) هناك نماذج أخرى للمعالجة اللغوية طرحها العلماء انظر : Greene, P.P. 139-186

(١٧٨) Kiparsky, Historical Linguistics, P. 306

(١٧٩) انظر أمثلة أخرى في : Crystal, P. 117.

القطعة الصوتية قد تأثرت بقطعة تالية لها (ومن ثم تكون العلة سيكولوجية)، وتعد هذه الظواهر جانبا مهملا في الدراسة الوصفية التزامنية للكلام نتيجة النظرة التقليدية للكلام على أنه تتابع من الكلمات المنفصلة، أو من الوحدات الصوتية المنفصلة، وإذا ما تصور المرء أن المتكلم ينطق كلمة كلمة مع وقفات تفصل بين الكلمات، أو فونيما فونيما مع وقفات تفصل بين الفونيمات، فسيكون أبعد ما يكون عن الواقع اللغوي، فنطق الإنسان لا يعرف الحدود الفاصلة بين الكلمات والفونيمات، ويبدو أن الوحدة العملية للأداء اللغوي هي المقطع الصوتي الذي هو مجموعة من الوحدات الصوتية قد تكون كلمة تامة، وقد تكون جزءا من كلمة، وقد تتكون من مجموعة وحدات صوتية ينتمي بعضها إلى كلمة وينتمي بعضها الآخر إلى كلمة أخرى، وعندما يتكلم المرء ينساب كلامه في سلامة وموسيقية وانسجام، مما يؤدي إلى المماثلة الأمر الذي قد يؤدي إلى ظهور بعض الصيغ المحرفة، وذلك مثل مَنْجَلة ومَخْرَطة (على وزن مَفْعَلة والوزن القياسي في العربية الفصحى مِفْعَلة)، ويمكن ملاحظة أنواع عديدة من المماثلة فقد تكون المماثلة جزئية وقد تكون تامة، وذلك حسبما إذا كانت الوحدتان الصوتيتان قد اصبحتا متقاربتين أو متطابقتين، وقد تكون المماثلة متصلة أو منفصلة وذلك حسبما إذا كانت الوحدتان الصوتيتان متجاورتين أو يفصل بينهما فاصل، وثمة تصنيف ثالث وفق اتجاه عمل المماثلة فهناك المماثلة الارتدادية ويتغير فيها الصوت بتأثير الصوت التالي له، والمماثلة الأمامية ويتغير فيها الصوت بتأثير الصوت السابق له، والمماثلة التبادلية وفيها يؤثر كل صوت منهما على الصوت الآخر، ومن أمثلة المماثلة تحول octo (ثمانية) في اللغة اللاتينية إلى otto في اللغة الإيطالية (١٨١) .

ومما يعزى أيضا إلى العوامل الفسيولوجية ما يعرف بالحذف الصوتي، أي فقدان أحد المقطعين المتماثلين من الناحية الصوتية والمتتاليين، ومن ذلك على سبيل المثال تحول كلمة Engla- land (بلاد الانجليز) في اللغة الإنجليزية القديمة (الانجلوسكسونية) إلى England في اللغة الانجليزية الحديثة، وتحول صيغة تَتَفَعَّل إلى صيغة تَفَعَّل في القرآن الكريم والشعر العربي.

(١٨١) ليونز، ج ٢، ص ص ٣٥ - ٣٦.

ومن ضمن العلل السيكولوجية التي تقف وراء التغير اللغوي أن المرء عندما يتكلم يسبق كلامه الفعلي تخطيط سيكولوجي لعملية تركيب عناصر الكلام حيث يقوم بتنظيم الفونيات في وحدات صرفية، وبعد ذلك يقوم بتنظيم الوحدات الصرفية في تعبيرات، ثم يقوم بتنظيم تلك الأخيرة في جمل وعبارات... الخ، وتظهر الأمثلة الآتية المأخوذة من بعض التجارب النفسلغوية أن الفونيات المفردة يمكن أن تكون ذات ترتيب خاطيء[181].

القول المقصود: you better stop for gas.

القول الخاطيء: you getter stop for bas.

القول المقصود: brake fluid.

القول الخاطيء: blake fruid.

القول المقصود: bed bugs.

القول الخاطيء: bud begs.

القول المقصود: an ice cream cone.

القول الخاطيء: a kice ream cone.

وتقدم مثل هذه الأخطاء نظرات عميقة في المستوى الصوتي لتخطيط الكلام، فالفونيم /g/ في gas حل محله /b/ الموجود في better وذلك في المثال الأول، الأمر الذي يشير إلى أن هذه الأخطاء الفونيمية مؤشرات على عمليات تسبق النطق، وهي عبارة عن تجميع الوحدات المكونة للكلمات وتجهيزها مع ترتيبها الصحيح، بيد أنه أحيانا يحدث الخطأ، ويشير الخطأ في المثال الأخير إلى إحلال k الموجود في cream ـ على نحو خاطيء ـ في مقدمة كلمة ice لتكون kice، ويشير استخدام أداة التنكير a بما يتناسب مع الوضع الراهن الخاطيء (وليس an بما يتناسب مع الأصل) إلى أن اختيار الأداة يكون في مرحلة تخطيطية تالية لتلك المرحلة التي حدث فيها خطأ التبادل الفونيمي[182].

(١٨١) Ellis & Beattie, P.P. 125-126.

(١٨٢) Ibid, P.126.

وهذه الشواهد تشير إلى أنه في إحدى مراحل التخطيط السيكولوجي للأداء اللغوي (الكلام) تكون الفونيمات المفردة للكلمة منفصلة ومرتبة كخرزات في سلسلة، ويمكن أن تؤدي بعض الأخطاء التي تحدث في هذه المرحلة إلى ما يطلق عليه اللغويون القلب المكاني، وهو ما يمكن التمثيل له بثنائيات معروفة لدينا في العامية القاهرية مثل: أرانب وأنارب، وملاعق ومعالق، ومسرح ومرسح، وهلم جرا.

وإذا كانت تلك الشواهد تشير إلى أن الفونيمات المفردة للكلمات تكون منفصلة ومرتبة كخرزات في سلسلة، فإنه مع السرعة في الكلام نفتقد هذه الفواصل عند النطق، وعند سماعك الكلام المعتاد اليومي فسوف تدرك أن كلمات كثيرة تُنتقَص وتُبسَّط في الانتاج فتعبيرة مثل: last year سوف تفقد صوت /t/ لتكون [lasyear]، وتعبيرة مثل: stands still سوف تفقد صوت /d/ بالإضافة إلى عدم التمييز بين s/'s/ لتصبح [stanstill]، والكلمة similar ربما انقصت لتكون [simla]، وتنقص prisoner لتكون [prizna] وتنقص perhaps لتصبح [paps]، وتختزل التعبيرة will have been لتصبح [willabin] (١٨٣)، وتحكم عمليات الاختزال والتبسيط هذه عوامل مثل القدرة على التنبؤ بالكلمة، ومستوى الحديث، فمثلا الحديث الرسمي ينطق بعناية أكثر من الحديث اليومي المعتاد، ومن الاختزال والتبسيط تحول Engla-land في اللغة الانجليزية القديمة إلى England في اللغة الانجليزية الحديثة (ولا ضير أن يكون هذا المثال قد ذكر فيما يتعلق بالعلل الفسيولوجية للتغير اللغوي وتحت ما يعرف باسم الحذف الصوتي، فالعلل التي تؤدي إلى التغيير متداخلة ولا تنفرد غالبا علة واحدة في جانب من جوانب التغير اللغوي)، وتحول صيغة تَتَفَعَّل إلى صيغة تَفَعَّل في القرآن الكريم والشعر العربي مثل تَلَظَّى، وتَلَهَّى، وتَزَكَّى، وما إلى ذلك، ويمكن أن تكون هذه العلة وراء وجود بعض التعبيرات المختزلة مثل سَلْخير، وعم صباحا، ومعلهش، وأيوه في بعض اللهجات العربية.

---

(١٨٣) وهو ما يجعله آتشيسون مظهرا من مظاهر الكسل والتغاضي عما هو ضروري في الحياة، انظر: Aitchison, P. 136

(٢) القيـــاس

يعد القياس من أبرز العلل التي تندرج في إطار العلل السيكولوجية، ومصطلح قياس يعني في أصله الإغريقي (analogia) الاطراد، وعلى الأخص ما يطلق عليه الرياضيون والنحاة اسم الاطراد التناسبي، فمثلاً إذا كانت:

$$\frac{٦}{٣} = \frac{٤}{٢} = \frac{س}{٨} = \frac{٨}{ص}$$

فإن س = ١٦، و ص = ٤، وكذلك الأمر إذا كان:

$$\frac{\text{مدرس}}{\text{مدرسة}} = \frac{\text{مدرسون}}{\text{مدرسات}}$$

فإن س، وص في:

$$\frac{\text{مهندس}}{\text{س}} = \frac{\text{ص}}{\text{مهندسات}}$$

هما مهندسة، ومهندسون على الترتيب.

ويؤكد دور القياس في الإنتاج اللغوي تعلم الطفل أعداداً ضخمة من الصيغ القياسية بالإضافة إلى صيغ خاطئة مثل: حيرين جمعاً لحمار كما يقول بعض الأطفال، وكراسيـس كذلك جمعاً لكراسة[١٨٤] حيث يعامل الطفل هذه الصيغ قياساً على صيغ أخرى، وكذلك الأمر في نطق الأطفال في البيئة الإنجليزية bringed كصيغة ماضية لـ bring

(١٨٤) الأمثلة الخاصة بنطق الأطفال باللهجة العربية الدارجة في القاهرة أخذها المؤلف من النطق الفعلي لطفليه هبة الله، ومحمود.

وليس brought، ونطقهم goed كصيغة ماضية لـ go وليس went، الأمر الذي يتضح منه أن الطفل يستخدم القوانين أكثر مما يستخدم الذاكرة، وفي الغالب يعمل القياس في اتجاه زيادة الأفعال القياسية على حساب الأفعال الشاذة فقد كانت help ماضيها holp في اللغة الإنجليزية القديمة (الأنجلوسكسونية) فتحولت إلى helped حسب الاتجاه العام الذي ينحو إلى زيادة الأفعال القياسية، وزيادة دور القياس، بيد أننا نرى أيضاً قياساً عكسياً[١٨٥] تتحول وفقاً له صيغة من الصيغ القياسية إلى الشذوذ (بالمعنى العام فيما يتعلق بالنظام اللغوي ككل)، وذلك مثلما تحولت الصيغة dived (يسقط) ماضي dive في اللغة الإنجليزية القديمة إلى dove في اللغة الإنجليزية الحديثة، والتحول المعاكس للاتجاه الغالب ما هو إلا جهد قياسي كذلك مثله في ذلك مثل تحول holp إلى helped إذ إن اللغة تظهر نمطين من الصياغة كل منهما يعد جدولاً تصريفياً قياسياً بدرجة أقل أو أكبر حيث نستطيع توزيع الأفعال الشاذة في اللغة الإنجليزية على سبيل المثال في مجموعات يحكمها نوع من القياس، أما اللغة الفرنسية فيبدو ذلك فيها واضحاً بدرجة كبيرة.

وفي العصر الحديث أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة صيغاً كان الصرفيون العرب قديماً يعدونها أخطاء، وذلك بسبب انتشارها بين المثقفين، وذلك مثل الصيغ المنسوبة: طبيعي، وبديعي، ورئيسي، وكانت الصيغة الأصلية لها طبعي، وبدهي، ورأسي، وذلك لأنه عند النسب إلى وزن فَعِيلَة نحذف ياء فعيلة ما لم تكن مضعفة أو معتلة[١٨٦]، وهذا التحول يعد من قبيل عمل القياس في اتجاه زيادة الصيغ الأكثر قياسية على حساب الصيغ الأقل قياسية، وهو ما يكشف كذلك عن قوة التغير اللغوي، الأمر الذي دفع مجمع اللغة العربية في القاهرة إلى التسليم به وإدخاله في صلب النظام المعياري للغة العربية الفصحى[١٨٧]، والأكثر من ذلك أن تعبيرات أخرى حديثة وردت حسب الصياغة

(١٨٥) ليونز، ج ٢، ص ٣٧.

(١٨٦) حسن، ج ٤، ص ٥٥٠.

(١٨٧) نص قرار المجمع: «ورود السماع بحذف الياء وإثباتها في النسب إلى فعيل ـ بفتح الفاء وضمها، مذكرة ومؤنثه، في الأعلام وفي غير الأعلام، ولهذا يجاز الحذف والإثبات».
صدر القرار بالجلسة التاسعة من مؤتمر الدورة الخامسة والثلاثين
انظر: أمين، ص ص ٨٥ ـ ٨٦.

الأحدث ولم يصبح من المستساغ ورودها حسب الصياغة الأقدم وذلك مثل عبارة «الإقرار الضريبي» على سبيل المثال.

ويلعب القياس مع الاقتراض دوراً في التغير اللغوي، فمثلاً كلمة سراويل كلمة فارسية الأصل (للمفرد) انتقلت إلى اللغة العربية فقيست على الكلمات التي على وزن فعاليل، وعوملت مثلها معاملة الجمع، واشتقت العربية منها مفرداً هو سروال وذلك حتى تكون من طائفة الكلمات التي مفردها مفعال وجمعها مفاعيل كمشوار ومشاوير، ومغوار ومغاوير، وهلم جراً.

وانتقلت أيضاً إلى العربية كلمة (فراديس) من اللغة الإغريقية، وهي للمفرد، بيد أنها قيست في اللغة العربية على الكلمات التي على وزن فعاليل وعوملت مثلها معاملة الجمع، واشتقت اللغة العربية منها مفرداً هو فردوس، وذلك حتى تكون من طائفة الكلمات التي تضم: طربوش وطرابيش، وطقطوقة وطقاطيق، وكنبوش وكنابيش وهلم جراً.

وقد اقترضت اللغة الروسية كلمة (sportsman) من اللغة الإنجليزية وحرفتها لتكون (sportsmen) وصاغت لها صيغة الجمع المذكر (sportsmeny) الذي يتناسب مع صيغة الجمع المذكر في اللغة الروسية، وصاغت لها صيغة للمفرد المؤنث (sportsmenka) وصيغة الجمع المؤنث (sportsmenki)، واقترضت من الإنجليزية أيضاً كلمة (businessman) لتحرف أيضاً لتصبح (biznismen) ولتصوغ لها صيغة الجمع (biznismeny) التي تتناسب مع البنية اللغوية للغة الروسية، وحرفت معناها لتعني الشخص الذي يتجر في السوق السوداء الأمر الذي يتناسب مع البنية في المجتمع الشيوعي.

واللغة السواحيلية تمارس سلوكاً مماثلاً، فنجد فيها الكلمة kiplefiti (جزيرة مرورية) وهي مأخوذة من keep left الإنجليزية، ونظراً لأن الكلمات السواحيلية التي تبدأ بـ ki في المفرد تبدأ عادة بـ vi في الجمع فإننا نجد صيغة الجمع (viplefiti)، ونظراً لأن عدداً من الكلمات في اللغة السواحيلية تكون فيها لاصقة الجمع -ma فإننا نجد أن الكلمة الإنجليزية mudguard (رفرف) تقبل بوصفها صيغة الجمع madigadi مع صيغة افراد مناظرة لها هي digadi[188]

(١٨٨) Aitchision, P. 121.

(٣) اكتساب اللغة

عندما يبدأ الطفل في اكتساب لغته القومية لا يتعلم قوانين النظام اللغوي الذي يتضمنه كلام المحيطين به، بل يستخلص هذه القوانين بنفسه من أنماط التناظر بين الشكل والمعنى الذي يتحرى عنه في الأقوال التي يسمعها من حوله.

ويمر الطفل وهو يكتسب لغته بمراحل عديدة، ففي الأشهر الستة الأولى بعد الولادة يمر عادة بنجاح من مرحلة الصياح إلى مرحلة المناغاة، ومن مرحلة المناغاة إلى مرحلة البأبأة، ويلاحظ أن الأصوات التي يصدرها الطفل في مرحلتي الصياح والبأبأة واحدة تقريباً عند كل الأطفال، وانه لا صلة لها بالبيئات اللغوية التي ينشأ الطفل فيها، وبعد مرحلة البأبأة يشرع الطفل وهو في حوالي الشهر التاسع من عمره في اكتساب عناصر النظام الفونولوجي للغته الأم التي يتمكن منها جميعاً مع الوقت إلى أن يبلغ سن الخامسة، ويتأخر اكتساب بعض جوانب البنية الفونولوجية إلى فترة أطول.

ويلاحظ أن الطفل يكتسب بعض العناصر على نحو أسرع من بعضها الآخر، فعلى سبيل المثال يكتسب الصوامت الشفوية قبل الصوامت الأسنانية اللثوية والصوامت الطبقية، ويكتسب الصوامت الشديدة قبل الصوامت الرخوة، ويكتسب الصوامت الشديدة الفموية قبل الصوامت الأنفية.

وعلى المستوى النظمي نرى لغة الطفل تبدأ بمرحلة الكلمة الجملة، وفي هذه المرحلة ينتج الطفل جملاً أحادية الكلمة، ومن ثم جاء مصطلح «الكلمة الجملة»، ويتبع هذه المرحلة ما يطلق عليه «المرحلة التلغرافية» ينتج الطفل أثناءها أقوالاً مكونة من كلمتين أو وحدتين، وتشبه هذه الأقوال لغة البرقيات حيث تفتقد حروف العطف وأدوات التعريف والروابط ثم يتبع هذه المرحلة مراحل أخرى تقترب شيئاً فشيئاً من حديث الكبار(١٨٩).

ويحمل الطفل في ذهنه نظماً فونولوجية وصرفية ونظمية وسيطة في المراحل التي تسبق

---

(١٨٩) ليونز، ج ٢، ١٠١ - ١٠٣.

اكتسابه التام للغته، ويحدث التغير اللغوي عندما يظل على قيد الحياة استخدام ما يتناسب مع قوانين النظم الفونولوجية أو النظمية أو الصرفية الوسيطة لتتبناه الجماعة اللغوية بوصفه نمطاً لغوياً جديداً.(١٩٠).

وقد ذهب الباحثون إلى أن عملية اكتساب اللغة عامل حاسم من عوامل التغير اللغوي، فسوسير يرى أن جميع التغيرات الصوتية هي نتيجة انتصار بعض الأخطاء التي تبقى في لغة الفرد من غير تصحيح، وتظل عند الفرد ثم تتعزز، وتثبت في الجيل الصاعد، بيد أنه لاحظ أن هناك من الشواهد ما يزعزع هذه الفرضية، فمن الأخطاء الشائعة لدى الأطفال أنهم ينطقون الكاف تاء لكن لا يترتب على ذلك تغير صوتي تاريخي يماثل تلك الأخطاء الشائعة(١٩١).

ويرى يل (Yule)أنه إذا كانت بعض التغيرات يمكن أن ترتبط بتغيرات اجتماعية أحدثتها الحروب والغزوات والكوارث الطبيعية، فإن عملية انتقال اللغة من جيل إلى جيل تعد العامل الأكثر انتشاراً، ويرجع ذلك إلى أن كل جيل جديد عليه أن يجد طريقة لاستخدام لغة الجيل السابق، وفي هذه العملية المستمرة التي لا نهاية لها على كل مستخدم جديد للغة أن يعيد بنفسه ولنفسه لغة الجماعة التي ينشأ فيها، ويكون أمر التغير لا مناص منه، خصوصاً إذا وضعنا في الاعتبار وجود نزعة طبيعية لتعرف الأشياء على نحو دقيق، وأخرى لتعرف الأشياء على نحو تقريبي، وأكثر من ذلك هناك أيضاً رغبة عارضة لتعرف الأشياء على نحو مختلف، وإذا ما وضعنا في الاعتبار هذا كله يتضح لنا أن عملية انتقال اللغة من جيل إلى جيل ينتج عنها تغير لا مناص منه(١٩٢).

وذا كانت هناك نزعات طبيعية تدفع باللغة وهي تنتقل من جيل إلى جيل إلى التغير، فإن هناك عوامل أخرى تعمل على التغير. فقد ثبت أن الطفل وهو يكتسب اللغة الأم لا تقدم له اللغة كمنتج جاهز، كما لا يمكنه ـ بخلاف الكبار الذين يتعلمون لغة ثانية ـ

(١٩٠) Kiparsky, Linguistic Universals and Linguistic Change, P.P. 194-195.

(١٩١) Saussure, 149 .

(١٩٢) Yule, P. 176 .

استخدام قوانين صريحة مع تطبيقات عليها، كما أنه لا يستفيد كثيرا من إرشادات الكبار التي قد تقدم له، ولكن على الطفل أن يجمع اللغة لنفسه بنفسه، وأن يكتشف قوانينها وكل ما يتعلق بها من الكلام الذي يسمعه من المحيطين به، وأول ما يدفع باللغة إلى التغير في هذا الجانب أن الطفل يتعلم لغته الأم وهو يتجاهل تماماً تاريخها، فعلى سبيل المثال عند سماع الطفل الإنجليزي [nayf] الصيغة المنطوقة للكلمة Knife لا يكون لديه سبب يدعوه إلى أن يفترض صيغة أساسية تبدأ بالصوت [k]، وأن يقول بوجود قانون يحذف الصوت الأول [k] بموجبه إذا وقع قبل [n]، ويتبع ذلك أن النظام النحوي للغة لا يحتفظ بأي قانون لا يكون لوجوده مبرر تزامني.(١٩٣).

وإذا كنا في المثال السابق قد رأينا قانوناً صوتياً ليس له مبرر تزامني، ومن ثم تخلص النظام اللغوي منه أثناء انتقال اللغة من جيل إلى جيل، فإن ثمة مثالاً آخر يمكن أن يكون شاهداً على الاحتفاظ بالقانون الصوتي إذا كان له مبرر تزامني، فالمتكلم الإنجليزي الذي لا ينطق [r] في star لديه ما يبرر افتراضه لصيغة أساسية لهذه الكلمة في آخرها الصوت [r] لأن هذا الصوت يظهر في بعض السياقات مثل: the star explodes، الأمر الذي يبرر وجود قانون في النظام النحوي تحذف بموجبه [r] في السياق (حركة ــــ صامت/ وقف) أي إذا سبقت الـ [r] حركة وأعقبها صامت أو وقف، وبناء على ذلك نتوقع أن يحتفظ الطفل بهذا القانون وهو يكتسب لغته الإنجليزية الأم(١٩٤).

وإذا لم يتم تصفية القوانين التي لا مبرر تزامني لوجودها فمن المتوقع أن تتراكم هذه القوانين، وأن يتزايد تعقيدها بسبب التغير الصوتي، وعليه فإن انتقال اللغة من جيل إلى جيل يصاحبه إضافة القوانين أو حذفها، وكذلك إعادة بناء النظام اللغوي بأكمله، وذلك حتى تكون اللغة من المناسب استخدامها في عملية التواصل.

وفي بض الحالات تتسبب عملية اكتساب اللغة في استبدال قانون بآخر فعلى سبيل المثال كانت الكلمات الإنجليزية: what، و when، و where في بداية هذا القرن تنطق على

(١٩٣) Kiparsky, Historical Linguistics, P. 310 -

(١٩٤) ibid, P. 311 .

نحو مطرد مبتدئة بـ [wh]، ثم حدث بعد ذلك في مناطق عديدة أن أخذت [h] في السقوط في الكلام السريع، ويفترض أن الجيل القديم قد تعلم قانوناً صارماً يحكم بحذف [h] في الكلام غير المتأني، وأنه قد تعلم هذه الكلمات مع [wh] في أولها ويحذفونها وفق قانون حذف [h] في الكلام غير المتأني، بينما ينشأ الجيل الأصغر يسمع هذه الكلمات تبدأ بـ [w]، ومن ثم ينظرون إلى هذه الصيغة على أنها الصيغة الأساسية، ويكون القانون الذي يطبقونه عكس ذلك الذي يطبقه آباؤهم، وهو قانون الإضافة، أي إضافة [h] إلى تلك الكلمات إذا كان الكلام ينطق ببطء وعناية(١٩٥).

ولا يعاني الطفل من الاضطراب بشأن الصيغ الشاذة والأفعال غير القياسية في بداية اكتسابه اللغة، وذلك لأنه يحفظ كل صيغة تصريفية في ذاكرته كمفردة منفصلة ثم يتخلص منها بعد ذلك كلما تعلم قوانين عامة لاشتقاقها، وبناء عليه فإن الطفل الإنجليزي إذا اكتشف قانوناً رئيسياً لصياغة الصيغ الماضية في الإنجليزية فإنه لا يكون قادراً فحسب على إنتاج صيغ ماضية بالاعتماد على نفسه مثل walked، و floated فحسب، ولكنه يميل أيضاً إلى نسيان الصيغ الشاذة الصحيحة التي كان يستخدمها، ويطبق عليها القانون فيقول مثلاً goed، و hitted، و drinked . . . الخ، وبعد ذلك يعاد تعلمها كاستثناءات للقانون الجديد، وعندما يتعلم قانوناً ثانوياً لصياغة الصيغ الماضية من الأفعال الشاذة في اللغة الإنجليزية مثل sang، و drank فإن الصيغة الصحيحة brought التي كانت في ذاكرته من قبل تكون عرضة لأن تصبح brang، وهلم جرا(١٩٦).

ويرى كبارسكي أن الصيغ التي يخطىء فيها الأطفال للأسباب المذكورة في الفقرة السابقة هي ما يمكن للمرء أن يتوقع حدوثها في تغير لاحق في اللغة الإنجليزية، الأمر الذي يدفعه إلى افتراض أن القياس كتغير تاريخي ينشأ من خلال احتفاظ لغة الكبار بمبالغة الأطفال في الاطراد(١٩٧).

---

(١٩٥) Aitchision, P. 174 .

(١٩٦) Kiparsky, Historical Linguistics, P.P. 311-312.

(١٩٧) ibid, P. 312 .

ويمكن أن تتسبب عملية اكتساب اللغة في التغير، فمعروف أن الأطفال وهم يكتسبون لغتهم القومية يسيرون وفقاً لسلسلة من الخطوات تتماثل عند الأطفال جميعاً، فهم يتعلمون الصوت [o] والصوت [j] متأخرين إلى حد ما، ويجعلون محلهما عادة [٧]، [f]، ومن ثم ينطقون mouth مثلاً كما لو كانت mouf، وتكون الكلمة معرضة للتغير الصوتي إذا ما احتفظ الكبار بهذا النطق لها(١٩٨).

وعلى المستوى النظمي ذكر كبارسكي أن بنية النفي المزدوج ـ على سبيل المثال ـ في اللغة الإنجليزية دخلت إليها في الأصل من لغة الأطفال حيث يستخدم الأطفال في تلك البنية قانوناً نحوياً بسيطاً يتناسب مع نظام نحوي بسيط ووسيط يعملون وفقاً له أثناء فترة اكتساب اللغة(١٩٩).

ولا غبار على ما ذكرنا من قبل، فقد تترك عملية اكتساب اللغة وانتقالها من جيل إلى جيل أثراً في اللغة، وبتكرار هذه العملية تتراكم تلك الآثار مما يجعلنا نتوقع تغيراً ملموساً في اللغة بمرور عدة أجيال، بيد أن هناك من الباحثين من يتطرفون في هذه القضية فيذهبون إلى أن عملية انتقال اللغة من جيل إلى جيل تعد العامل الأكثر حسماً، والأكثر أهمية في عملية التغير اللغوي، وأكثر من ذلك فقد ذهبوا إلى أن الأطفال هم المحرضون على التغير اللغوي، وأن التغيرات كلها أو معظمها على الأقل ترجع إلى تعلم الأطفال الناقص لصيغ الكلام الموجودة في الجيل الأسبق، ويذهبون إلى أن نتاج سلوك الأطفال في بتر الكلمات والمبالغة في الاطراد في الصيغ مثل: حمار (حمرين) بدلاً من حمير، وماضي go (goed) بدلاً من went رغم أنه يمحي بتقدم الأطفال في العمر فإن قدراً من هذا النتاج يظل مستمراً في الجماعة اللغوية، ومن ثم يؤثر في اللغة ككل.

ويذهب أولئك الباحثون إلى أن العلة الرئيسية للتغيرات الصوتية تكمن في انتقال الأصوات إلى أفراد جدد، فلا يمكن لأي فرد أن يمنع ما يمر من الفم إلى الأذن من التغير، وأن التغيرات الرئيسية في النطق التي يمكن أن نتناولها بالبحث تنشأ أولاً في كلام الأطفال،

---

(١٩٨) ibid, P. 312 .

(١٩٩) Kiparsky, linguistic Universals and Linguistic Change, P.P. 193-195

وأنه إذا تعلمت اللغات على نحو تام من قبل الأطفال في كل جيل فحينئذ لن تتغير اللغة، وأن التغيرات في اللغة هي ببساطة أخطاء خفيفة تغير عبر الأجيال خصائص اللغة تماماً، وأن النظم النحوية للمتكلمين الكبار تتغير في الغالب بوساطة تغيرات ثانوية، وأن عملية اكتساب اللغة مصدر التشعب والتغير عموماً، وأن معظم التغيرات في اللغة يمكن أن ينظر إليها باعتبارها تغيرات في مجموعة من القوانين في النظم النحوية بين جيلين من متكلمي تلك اللغة، وأن التغير من المفترض أن يحدث في وثبات مفاجئة بين الآباء والأولاد، وربما كان كل جيل من الأطفال يعيد خلق نظام نحوي مختلف بشكل طفيف عن النظام النحوي الخاص بآبائهم، وهذه الآراء يبدو أنها مؤيدة بثلاث ملاحظات منفصلة تتعلق بلغة الطفل(٢٠٠).

الملاحظة الأولى: بساطة لغة الطفل، وأكثر ما يتضح فيها استبعاد الأطفال للصيغ الشاذة، وهو ما نجده كذلك في اتجاهات التغير اللغوي التاريخي، مما دعا أصحاب هذه النظرية إلى القول بأن هذا النمط من التغير اللغوي التاريخي يبدأ به الأطفال، ويحدث عندما تظل صيغة الطفل المفرطة في بساطتها على قيد الحياة في فترة البلوغ، وتصبح مقبولة في الجماعة اللغوية بوصفها الصيغة القياسية.

لكن هذه الملاحظة لا تبرر التطرف في إعطاء الأهمية العظمى لهذه العلة في التغير اللغوي، فهذه الظواهر لا تستمر في لغة الطفل، فسرعان ما تمحى الصيغ المفرطة في القياس لتحل محلها الصيغ الصحيحة، كما أن هذه الظاهرة لا تصيب في التغير اللغوي سوى الكلمات الأقل تكراراً، والكلمات الجديدة، والكلمات المركبة، وهي كلمات لا يحتمل وجودها في كلام الطفل المبكر أو معرفته بها على الإطلاق.

والملاحظة الثانية: هي أن اكتساب اللغة يرتبط بما يعرف بالمرحلة الحرجة، وهي مرحلة عمرية تمتد من سن السنتين إلى ما قبل البلوغ، والطفل الذي لا يقدّر له التعرض للكلام خلال هذه السنوات الحرجة ربما وجد صعوبة هائلة في اكتسابه اللغة، وادّعى بناء على ذلك بعض اللغويين أن النظام اللغوي الداخلي للمرء يصبح ثابتاً وغير قابل للتغير في سن صغير نسبياً، بيد أن التدقيق في هذه القضية يكشف عن أن المرحلة الحرجة ليست وثيقة

(٢٠٠) Aitchision, P.P. 176-179 .

الصلة ـ بالضرورة ـ بالتغير اللغوي، وليس هناك شاهد على أن تعلم اللغة أو تغيرها غير محتمل بعد فترة المراهقة، وحتى العلماء الذين ساقوا الشواهد لإثبات المرحلة الحرجة لم يذهبوا إلا إلى أن عملية اكتساب اللغة بعد هذه الفترة تكون أقل سلاسة وذات مشكلات أكثر مما يمكن أن يلاقيه المرء عند اكتسابه اللغة أثناء هذه الفترة.

كما أنه من الواضح أن الناس يمكن أن يغيروا لغتهم بشكل واضح في حياتهم المتأخرة، وذلك كما يظهر في لغة أولئك الأفراد المهاجرين، أو الذين ينتقلون إلى مستويات اجتماعية أو تعليمية أعلى.

والملاحظة الثالثة: أن هناك ظواهر عديدة في لغة الطفل ترد على نحو متكرر في لغات العالم وتنبثق على نحو تلقائي، وهي في الوقت نفسه تتناظر مع ظواهر التغير اللغوي التاريخي، وذلك مثل ظاهرة التبسيط، وظاهرة المماثلة، وتقصير الكلمات... الخ

بيد أن هذه الملاحظة لا تبرر بشكل من الأشكال إعطاء هؤلاء الباحثين الأهمية العظمى في التغير اللغوي لعامل اكتساب اللغة وانتقالها من جيل إلى جيل، فالتبسيط في لغة الطفل يختلف عن التبسيط الموجود في التغير اللغوي التاريخي، حيث يؤثر الأول في الكلمات الشائعة بينما لا يؤثر الثاني إلا في الكلمات غير الشائعة.

وتختلف ظاهرة المماثلة في لغة الأطفال اختلافاً تاماً عن ظاهرة المماثلة الموجودة في التغير اللغوي، فهي عند الأطفال متفشية للغاية بخلافها في التغير اللغوي.

ونرى كذلك أن ظاهرة تقصير الكلمات في لغة الأطفال تختلف اختلافاً تاماً عن هذه الظاهرة في التغير اللغوي التاريخي، فبينما يميل الأطفال إلى حذف بدايات الكلمات كما في قولهم فزيون بدلاً من تليفزيون، وتاح بدلاً من مفتاح، وخية بدلاً من ملوخية، وتفى بدلاً من مصطفى، وحمود بدلاً من محمود نجد أن التغيير اللغوي بالحذف يكون في الأغلب بحذف نهايات الكلمات وذلك مثل (sub) بدلاً من submarine.

ومن أوجه الاختلاف كذلك بين ما نراه في لغة الطفل، وما نراه في التغير اللغوي التاريخي أننا نجد في لغة الأطفال اتجاهاً قوياً لإحلال الصوامت الشديدة محل الصوامت

الاحتكاكية، وذلك مثل إبة بدلاً من هبة، وأسن بدلاً من حسن، بينما يكون الاتجاه الأقوى في التغير اللغوي هو الاتجاه المعاكس «فالأكثر شيوعاً في التغيير التاريخي أن تحل الأصوات الاحتكاكية محل الأصوات الشديدة»(٢٠١)

ومن أوجه الاختلاف كذلك ما يتعلق على سبيل المثال بصوت [p]، فهو من أوائل الأصوات وأكثرها تكراراً في لغة الأطفال، بينما نجده الصوت الأكثر عرضة للتغير فيما يتعلق بالتغير اللغوي عبر الزمن، ويرجع ذلك إلى سهولة نطق هذا الصوت، بيد أنه يتطلب وقتاً طويلاً الأمر الذي يفسر اختلاف مسلكه في كلا الإطارين.

ويمكن أن تضاعف مثل هذه الشواهد التي تشير إلى أن أوجه الشبه بين العمليات التي توجد في لغة الأطفال والعمليات التي توجد في التغير اللغوي التاريخي هي أوجه شبه ظاهرية يمكن أن تكون خادعة ومضللة، وافتراض أن العمليات التي توجد في لغة الطفل تتطابق مع تلك التي توجد في التغير اللغوي يمكن أن يشبه افتراض أن الطيور والفراشات نوع واحد، لأن لكليهما أجنحة تطير بها.

ونرى في لغة الأطفال تغيرات لا يمكن أن تندرج تحت قواعد أعم، وذلك مثل قولهم دَمْه بدلاً من جَزْمة، وسِبْسِبْ بدلاً من شبشب، ونَحْمة بدلاً من لحمة، وضَيْضة بدلاً من بيضة وكعبْ أو تَبْ بدلاً من كلب، ولَبْلَبْلاه بدلاً من لبن. وهلم جراً، ومن المرجح أن هذه التغيرات نتيجة اضطراب الطفل لعدم سيطرته على النظام الفونولوجي في لغته، وهو ما يتمكن من سيطرته عليه بمرور الوقت، وزيادة حصيلته اللغوية، الأمر الذي يمكنه من إقامة التماثلات والتقابلات اللازمة لسيطرته على النظام الفونولوجي، وذلك نظراً لأن البعد السمعي لا يتناظر أحياناً مع البعد النطقي، أو بعبارة جون ليونز «تصنيفات علم الأصوات النطقي، وعلم الأصوات التجريبي، وعلم الأصوات السمعي لا تتطابق بالضرورة»(٢٠٢)، الأمر الذي يجعل الطفل يضطرب بينهما، وهو لم يسيطر بعد عليهما في إطار نظام متكامل، وهو ما لا تراه بعد سيطرته سيكولوجيا على النظام الفونولوجي للغته.

(٢٠١) Yule, P. 170 .

(٢٠٢) ليونز، ج ١، ص ٩٢.

(٤) الإستخدام الفني للغة

يميل الناس أحياناً (وليس الشعراء والأدباء وحدهم) إلى استخدام اللغة على نحو غير معتاد يحسن أن نسميه استخداماً فنياً، وهم في هذا الاستخدام يعمدون إلى تقوية المعاني الضعيفة أو المبالغة فيها أو إلى إضعاف المعاني القوية، ويعمدون كذلك إلى تحقيق الإنسجام والموسيقى بين ألفاظهم الأمر الذي يدفعهم إلى التحول عن الدلالات التقليدية للألفاظ أو عن النطق التقليدي لها وفاء لتلك العناصر الجمالية التي يحرصون عليها عند استخدامهم الفني للغة، ومن ثم يخرج استخدامهم الفني عن التقاليد والقواعد المرعية في الاستخدام اللغوي المعتاد(٢٠٣) أو المباشر، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى زيادة ظواهر التنوع اللغوي في إطار اللغة الواحدة، ويتسبب في وجود صراع بين الاستخدام المباشر للغة والاستخدام الفني لها، مما يسمح بحدوث التغير عبر الزمن عندما تشيع بعض الاستخدامات بفضل ما يمتاز به الاستخدام الفني للغة عادة من جمال وجاذبية في نفوس المتكلمين باللغة .

ويزخر الاستخدام الفني للغة بكل العناصر التي تؤدي إلى التغير اللغوي فنرى فيه تداخل اللهجات الموجودة في إطار اللغة العربية، وعلى الأخص عندما يقوم هذا التداخل بتحقيق بعض العناصر الجمالية . يقول مطلع أغنية مصرية ابتهاجاً بتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ .

أراضينا من هذا الجيلْ يرويها بَرَدَى والنيلْ
أنا واقف فوق الأهرام وقدامي بساتين الشام
يقولو لي أهلا يا زين يقولو لي مرحا يا زين

فتجمع هذه الأغنية بين اللهجة القاهرية، وبعض عناصر اللغة العربية الفصحى مثل اسم الإشارة «هذا»، والنطق الدارج لبعض العرب «أهلا يا زين»، «مرحا يا زين» بدون تنوين أهلا ومرحا، ولا يخفى على القارىء أن هذا الأسلوب يهدف إلى تحقيق عنصر

(٢٠٣) انظر على سبيل المثال: Thorne, P. 192 .

الموسيقي، بالإضافة إلى تقمص شخصية العرب خارج مصر، وهم يرحبون بالمصري في بلادهم قائلين بلهجتهم المحلية: أهلا يا زين مرحا يا زين.

ويزخر الاستخدام الفني للغة كذلك بالمبالغات وتقوية المعاني، الأمر الذي يجعلنا إزاء ظواهر أدبية تأخذ مسميات مختلفة مثل المجاز والاستعارة والتشبيه والصورة الفنية، ففي إحدى المسيرات الطلابية كان أحد هتافاتهم:

آه يا مصر وآه يا مصر من كلاب كل عصر

وواضح أن استخدامهم كلمة كلاب فيه من المبالغة والتصوير[٢٠٤] ما يحقق عناصر الجمال الذي ينشده مستخدم اللغة في هذا السياق بالإضافة إلى ما تحقق من موسيقى وتصوير - في العبارة - كشف عنها لفظة آه، واستخدام النداء «يا مصر».

ويشيع الاستخدام الفني في النصوص الدينية المقدسة، ومن قبيل هذا الاستخدام قوله صلى الله عليه وسلم: «ارجعن مأزورات غير مأجورات»، وقد عدل في هذا القول عن اللفظة المعتادة موزورات أي مذنبات إلى النطق بمأزورات حتى تتجانس مع كلمة مأجورات، وذلك لتحقيق الموسيقى في الكلام، وقد ساعد على هذا العدول في هذا السياق ما كان يشيع في كلام العرب من تبادل بين الهمزة وحروف العلة[٢٠٥].

ويمكن النظر في بعض آيات القرآن الكريم من هذه الزاوية فيما يتعلق بما أطلق عليه النحاة اسم «إعراب الجوار»[٢٠٦]، وذلك في تخريجهم للقراءة التي تجر فيها كلمة خضر في قوله تعالى: ﴿عاليهم ثيابُ سندسٍ خضرٍ﴾ وكان حقها حسب القواعد المعتادة في النحو العربي الضم صفة لثياب المضافة إلى سندس، فقد عدل عن هذا الاستخدام المعتاد تحقيقاً لعنصر الجمال الموسيقي في السياق اللغوي.

ويمكن النظر من هذه الزاوية كذلك في تخريج النحاة العرب لقوله تعالى: ﴿إنّ هَذَانِ

---

(٢٠٤) يتنازع المتكلم قوتان إحداهما تدفعه إلى المحافظة على دلالة الرموز المستقرة لضمان الوضوح الاتصالي والأخرى تدفعه إلى خلق تعبيرات أكثر فعالية انظر: Entwistle, P. 34

(٢٠٥) حسان، ص ١٢٠.

(٢٠٦) سيبويه، ج ١، ص ٦٧.

لَسَاحِرَانِ﴾ حيث ذهب بعض النحاة إلى أن هذه القراءة جاءت بما يتفق مع بعض اللهجات العربية حيث تستعمل لهجة بلحارث بن كعب وخثعم وزبيد وكنانة وآخرين، المثنى بالألف دائماً فتقول جاء الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان، ومن شواهد الشعر على ذلك قول رؤبة بن العجاج أو أبي النجم الفضل ابن قدامة العجلي: (٢٠٧)

إن أباها وأبا أباها   قد بلغا في المجد غايتاها

وبعبارة أخرى فإن الاستخدام الفني للغة في الآية الكريمة، والشعر، توسل باللهجات تحقيقاً لعناصر الجمال المرعية، أو بعبارة ثالثة فإن التداخل بين التنوعات المختلفة في اللغة الواحدة لعب دوره في تحقيق عناصر الجمال.

وتمتد ظاهرة العدول عن قواعد الاستخدام المباشر التقليدية إلى كل جوانب البنية اللغوية فيعدل الاستخدام الفني عن القواعد التقليدية المرعية في الاستخدام المعتاد للغة فيما يتعلق ببنية الكلمة ونظم الجملة، حيث يمكن تضمين الجامد معنى المشتق، والمتعدى معنى اللازم، وحيث تنوب حروف الجر بعضها عن بعض وهلم جراً، وفي إطار العدول عن قواعد الإعراب التقليدية يمكن صرف غير المنصرف، ومنع المصروف من الصرف، والفصل بين المتلازمين، والحذف وهلم جرا.

والعدول عن المعاني والتراكيب والألفاظ الأصلية في الاستخدام المعتاد أثناء الاستخدام الفني للغة فكرة قديمة في التراث العربي، فقد قال عبد القاهر الجرجاني إنه إذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة (يعني في الاستخدام المعتاد والمباشر) وصف بأنه مجاز بمعنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً(٢٠٨).

وقد لاقى سلوك الناس (وعلى الأخص الأدباء) في استخدامهم الفني للغة قبولاً عند اللغويين العرب القدماء وأبيح للشاعر ما لم يبح للمتكلم من قصر الممدود، ومد المقصور،

---

(٢٠٧) ابن هشام، ص ص ٤٧ - ٤٨.

(٢٠٨) الجرجاني، ج ٢، ص ص ٢٣٣ - ٢٥٢.

وتحريك الساكن، وتسكين المتحرك، وصرف ما لا ينصرف، وحذف الكلمة ما لم تلتبس بأخرى»(٢٠٩).

ويرى سيبويه أنه يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره في الكلام بشرط أن يضطر إلى ذلك، ولا يجد منه بداً، وأن يكون في ذلك رد فرع إلى أصل، أو تشبيه غير جائز بجائز، وقد وصف هذا الموقف بأنه مناصر لموقف الشعراء من هذه القضية(٢١٠).

وتمتد الحرية التي يتمتع بها الشاعر إلى حذف نهايات الكلمات في إطار ما يسمى بالترخيم «ويجوز الترخيم في الشعر في غير النداء»(٢١١)، وحذف هاء التأنيث «وأعلم أن الشعراء إذا اضطروا حذفوا هذه الهاء (هاء التأنيث) في الوقف، وذلك لأنهم يجعلون المدة التي تلحق القوافي بدلاً منها»(٢١٢)، وتمتد حريته كذلك إلى أنماط من التراكيب لا تجوز في الكلام المعتاد فقد أجاز سيبويه للشاعر أن يدخل أن على كاد، وأن يدخل الأسماء على حروف الاستفهام، وجوز كذلك حذف لام الأمر وعملها مضمرة(٢١٣).

ويرى ابن جني أن من حق الأديب أن يستعين بأضعف اللغتين إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنه مقبول منه غير منعيّ عليه. أما السبب في ذلك فهو أن الشعر (عند ابن جني) موضع اضطرار وموقف اعتذار وكثيراً ما يحرف فيه الكلم عن أبنيته وتحال فيه المثل عن أوضاع صيغها لأجله(٢١٤).

أما ابن عصفور فيجيز في الشعر وما أشبهه من الكلام المسجوع ما لا يجوز في غيرهما من رد فرع إلى أصل، أو تشبيه غير جائز بجائز، اضطر إلى ذلك أو لم يضطر، لأنه في موضع قد ألفت فيه الضرائر، وقد ساق ابن عصفور من الأمثلة ما تغطي العدول في مختلف جوانب البنية في اللغة من زيادة، ونقص، وتقديم، وتأخير، وإبدال فيما يتعلق بالأصوات،

(٢٠٩) ابن عبد ربه، ج ٣، ص ١٢٩.
(٢١٠) سيبويه، ج ١، ص ص ٢٦، ٣٢، ج ٢، ص ٢٤٢، ج ٣، ص ٨.
(٢١١) سيبويه، ج ٢، ص ص ٢٤٧، ٢٦٩ - ٢٧٤.
(٢١٢) سيبويه، ج ٢، ص ٢٤٢.
(٢١٣) سيبويه، ج ٣، ص ٨، ج ١، ص ص ٩٨، ٩٩، ج ٣، ص ١٢، ج ٢، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨٠.
(٢١٤) ابن جني ج ٢، ص ١٢، ج ٣، ص ١٨٨.

وحركات الإعراب، والحركات الموجودة في بنية الكلمة، وزيادة كلمات أو حذفها، وكذلك تقديم بعض الكلام على بعضه، وإبدال كلمة بكلمة أخرى وهلم جراً(٢١٥).

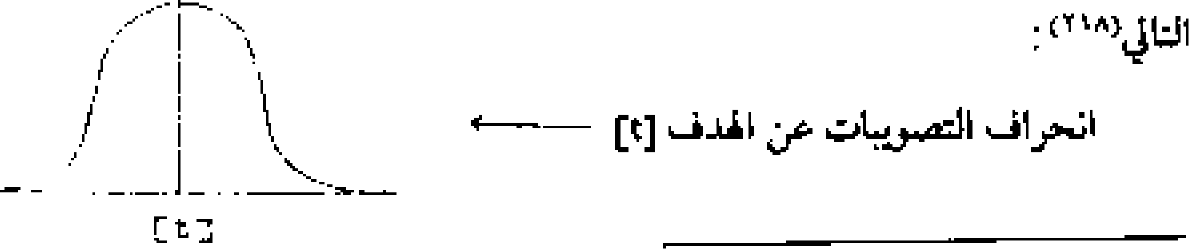
وهكذا فُتِحَتْ نافذةٌ شرعية لدخول رياح التغير اللغوي على مختلف جوانب البنية اللغوية أقرَّ بها اللغويون والنحاة الذين يعدون بمثابة الحرس القديم للغة، وطائفة الأدباء التي تعمل مثل هذه التغيرات تحتل عادة مكانة مرموقة في المجتمع، الأمر الذي يضاعف تأثيرها ويدفع الناس إلى محاكاتها، وبفتح هذه النافذة لا يمكن أن يبطل تأثيرها القولُ بأن هذه الصيغة أو هذا التركيب جائز في الشعر وغير جائز في النثر، أو ما إلى ذلك من أقوال، فالاستخدام الجديد قد يبدأ في الشعر لكنه لا يلبث أن ينتقل إلى النثر، مما يجعل من الاستخدام الفني للغة رافداً دائماً للغة بالجديد على صعيد النطق، وعلى صعيد البنية الصرفية والنحوية والدلالية، ومن ينظر في معجم من المعاجم (يفترض في المعجم أنه يتبنى الدلالات المباشرة لا المجازية) يرى كيف اقتحم الاستخدام الفني حصونه وكيف لم يجد صانع المعجم بداً من إدخال الكثير من الاستخدامات المجازية فيه الأمر الذي يشير في النهاية إلى أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من البنية اللغوية، وهو ما يظهر بالنظر في الدلالات التي قدمها المعجم الوسيط لكلمة قُلْعَة «القلعة: الرجل الضعيف، والذي لا يثبت على السرج، وما يقلع من الشجرة، وما لا يدوم من المال، والمال المستعار»، وكلمة اكفهر «اكفهر الرجل عبس، والليل اشتد ظلامه، والنجم ظهر ضوؤه في شدة الظلمة»، وكلمة كَلِبَ «كَلِبَ الكَلْبُ كَلَباً أصابه داء الكلب فهو كَلِبٌ، والرجل وغيره عضه الكَلْبُ الكَلِبُ فهو كليب (ج) كلبى. و- أكل كثيراً بلا شِبَع. و- عطش عطشاً شديداً. و- الشجر: خَشُن ورقه من العطش فعلق بثوب من يمر به وآذاه فهو كَلِبٌ و- الشَّير على الأسير: جَفَّ عليه وآذاه. والدَّهْر على أهله اشتد، ويقال كَلِبَ العدو وكَلِبَ السائل. و- على الشيء: اشتد حرصه عليه و- عليه غَضِبَ وسَفِهَ»(٢١٦).

(٢١٥) ابن عصفور، ج ٢، ص ص ٢٠٢ - ٢٠٦.
(٢١٦) انظر: المعجم الوسيط، وانظر أيضاً: ابن جني «باب في أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة»، ج ٢، ص ص ٤٤٧ - ٤٥٧.

(٥) التقليعة والتقلبات العشوائية

يرى بعض الباحثين في التغير اللغوي أن التغير الصوتي عشوائي وخاضع للصدفة، ولا يمكن التنبؤ بتقاليعه مثلما لا يمكن التنبؤ بالتقاليع الخاصة بالملابس وأشكال السيارات وما إلى ذلك، إذ لا يمكننا البحث عن سبب يجعل الناس يرتدون معطفاً عريض الياقة في سنة ثم ضيق الياقة في سنة أخرى، أو أن ترتدي السيدات أزياء قصيرة عاماً ثم طويلة عاماً آخر، ولا يمكننا البحث عن سبب يجعل شركات صناعة السيارات تصنع تغيراً معيناً في شكل السيارة عاماً بعد عام، ووفقاً لهؤلاء الباحثين فإن التغير اللغوي مثل التغير في الأزياء وأشكال السيارات لا يحكمه سوى التقلبات العشوائية والتقليعة(٢١٧).

وفقاً لتلك النظرية تحدث التغيرات في أصوات اللغة ـ على سبيل المثال ـ دون وعي، وتكون بمثابة تحول صوتي تدريجي بعيداً عن النطق الأصلي، وينتج هذا التحول التدريجي لأن المتكلمين يخطئون الهدف عن غير قصد، فهم عندما ينطقون صوتاً يكونون قاصدين هدفاً نموذجياً معيناً، ونظراً لأن الكلمات تفهم عادة حتى لو لم ينطق كل صوت على نحو متقن، فإن المتكلمين يستمرون في عدم التدقيق التام لإصابة الهدف في كل وقت اعتماداً على التسامح الذي يلاقونه من جانب المستمعين، الأمر الذي يؤدي بالمتكلم إلى أن يكون متهاوناً في الوصول إلى هدفه في معظم الأوقات، فالتصويبات تجاه [t] مثلاً سوف تكون في الاتجاه العام لما يُرْمَى إليه، بيد أنها سوف تقع بالقرب منها بحيث يكون الكثير منها أقرب منها، ويكون بعضها قريباً منها مباشرة والقليل منها بعيداً عنها، الأمر الذي يجعل مثل هذه التصويبات تتجمع حول نقطة مفردة هي التردد الأقصى، وهو ما يوضحه الشكل التالي(٢١٨):



(٢١٧) King, P. 189; Downess, P. 196; Saussure, P. 151 -

(٢١٨) Aitchision, P. 114 -

وبمرور الوقت ومع قدر كاف من التصويبات التي تفقد الهدف يسمع الناس عدداً هائلاً من أخطاء التصويبات القريبة، وفي النهاية يبدؤون في الاعتقاد بأن الهدف في مكان آخر، وبالتالي يتغير صوت [I] وهلم جراً.

ومن الشواهد التي تؤيد وجهة النظر السابقة أن المرء يتغير كلامه تدريجياً عبر السنين في اتجاه أولئك المحيطين به، وذلك كما يتضح في كلام الريفي الذي أتى إلى القاهرة منذ فترة طويلة، ومن الشواهد السيكولوجية أن الأشراط السيكولوجي ليس سوى تعميم لمثيرات ذات قرابة تعتمد على درجة التشابه بين المثير الأصلي والمثيرات المشابهة له، فإذا كان المثير الشرطي الأصلي صوت جرس ذا نغمة تقدر بـ ٣٠٠ دورة في الثانية فيحتمل أن يحدث التعميم للنغمة ٣٢٥ دورة في الثانية أو ٢٧٥ دورة في الثانية، الأمر الذي يفسر ثبات المثير فيما يتعلق بكلمات تنطق بأشكال مختلفة من أفراد مختلفين من النواحي الثقافية، والاجتماعية، والجسدية (٢١٩).

بيد أن تلك العلة لا يمكن أن تكون علة رئيسية مسؤولة عن جانب كبير من التغير اللغوي نظراً لأن الأصوات إذا كان من شأنها الإنحراف العشوائي فإن اللغة سوف تصبح في النهاية زاخرة باللبس والتشويش، ولكن على العكس من ذلك نجد اللغة دائماً حسنة التنظيم بصورة شاملة.

كما أننا نجد تغيرات معينة تحدث في لغات لا علاقة بينها، ولا يمكن أن تفسرها المصادفة والعشوائية التي تتضمنها تلك النظرية، كما نجد أن مناطق جغرافية بعينها تشيع فيها ظواهر لغوية معينة بما لا يتفق مع الفوضى التي يمكن أن تتضمنها النظرية(٢٢٠).

ونرى في اللغة قيوداً تجعل من بعض العناصر موضعاً للتغير اللغوي، وهو ما يوصف عادة بنقاط الضعف في النظام اللغوي، وتجعل من عناصر أخرى عناصر ثابتة مقاومة

---

(٢١٩) Lambert, P. 162

(٢٢٠) Bynon, P.P. 244-253

للتغير، ونجد أيضاً آليات معينة في التحول البنيوي الأمر الذي يستبعد تماماً العشوائية والمصادفة[٢٢١].

فإذا نظرنا إلى تحول اللغة المولدة (Guyanan Greol) المؤسسة على اللغة الإنجليزية فيما يتعلق بفعل الكينونة وجدنا أن هذا التحول تدريجي ودقيق، ويحدث في سلسلة من الخطوات الدقيقة لا يشتمل أي منها إلا على عدد صغير جداً من التغيرات، وقد أوضح بيكرتون (Derek Bckerton) الخطوات التي تحولت فيها اللغة المولدة المشار إليها فيما يتعلق بفعل الكينونة إلى ما يتطابق مع اللغة الإنجليزية، ففعل الكينونة في اللغة المولدة يأخذ أحياناً الشكل (a)، وأحياناً أخرى الشكل (de)، وفي حالة ثالثة لا يذكر في الجملة وذلك على النحو التالي:

الجملة في اللغة الإنجليزية	الجملة في اللغة المولدة
I am tired	1- mi wiiri
we were little boys	2- abi a lil bai
We were (there) till morning	3- abi de til maanin

ففي الجملة الأولى لا تستخدم اللغة المولدة (Guyanon Creole) فعل الكينونة، وفي الجملة الثانية تستخدم اللغة المولدة الصيغة (a) وهي لفعل الكينونة عندما يذكر قبل الإسم، وفي الجملة الثالثة تستخدم اللغة المولدة الصيغة (de) وهي لفعل الكينونة عندما يكون قبل التعبيرة الظرفية مثل (حتى الصباح).

وقد مرت اللغة المولدة في طريقها إلى ما يشبه اللغة الإنجليزية المعيارية بالمراحل الآتية:

١ - التخلي عن فعل الكينونة.

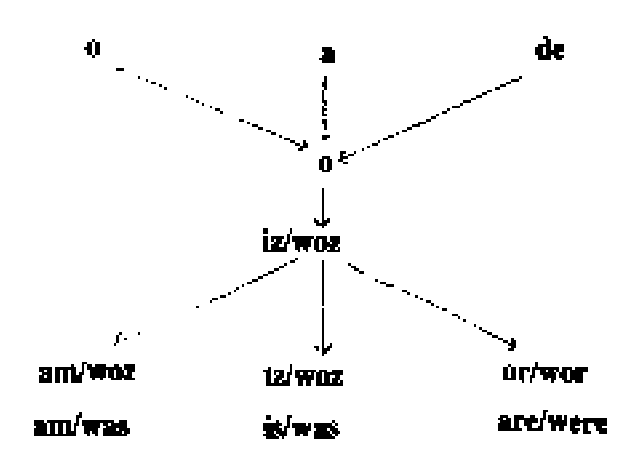
---

(٢٢١) Aitchision, P.P. 116-119 .

٢ ـ تعلم الصيغتين اللتين تشبهان مثيلتيها في اللغة الإنجليزية وهما iz، و woz للمضارع والماضي على الترتيب واستخدامها في كل السياقات أي مع المفرد والجمع.

٣ ـ تعلم الصيغ الإنجليزية الصحيحة والمواضع التي تذكر فيها، وهي في اللغة المولدة: wor، و or، و woz، و iz، و am وتتناظر مع were، و are، و was، و is، و am في اللغة الإنجليزية.

ويمكن توضيح هذه السلسلة من المراحل بالشكل التالي:



ونلاحظ أن هذا الرسم التخطيطي لا يظهر الواقع بشكل دقيق فقد كان السياق أكثر اضطراباً، فالتغير اللغوي في البداية يكون عبارة عن تقلبات ثم انحراف تدريجي مصاحب لابتعاد تدريجي عن القديم في اتجاه الجديد(٢٢٢).

وعليه فإن التغيرات ليست مجرد تقاليع غامضة ولا تقلبات عشوائية، وهي لا تتسبب إلا في اتجاهات موجودة سلفاً بشكل جنيني في اللغة، وذلك مثل الثورات الكبرى في التاريخ الإنساني لا تكون سوى صياغة حاسمة لتيارات واتجاهات وجدت لفترة غير قصيرة بشكل جنيني في رحم المجتمع الذي كان يعاني في فترة لاحقة من مخاض الثورة الذي يسبق ولادتها.

(٢٢٢) Downes, P. 195; Aitchision, P.P. 122-124

الفصـل الخامـس

العلـل الفسيولوجيـة

يعد النزوع إلى السهولة والجهد الأقل علة مفترضة لها جذورها عند كثير من الباحثين، فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الناس المتحضرين لا يؤدون - بسبب الكسل المتأصل في الحضارة - حركات النطق القوية التي تتطلبها اللغات البدائية في اللغات المتمدينة، وأنهم يتجنبون الأصوات الحلقية الصعبة، ويفضلون الأصوات السهلة نسبياً التي تصدر بعيداً عن منطقة الحلق إلى الأمام نسبياً من الفم، بيد أن كل ما زعموه يعد في النهاية لا أساس له من الصحة فليس هناك شاهد على أن هناك لغات بدائية موجودة الآن في العالم[٢٢٣]، فاللغات الموجودة الآن متكافئة من حيث التعقيد النظامي، ولا يكشف التنوع البنيوي، والإمكانيات المختلفة لكل منها عن أن لغات منها تتميز بأصوات سهلة، وأخرى بأصوات صعبة، ولا أن اللغات ذات الثقافات الأعلى ينقصها الأصوات الحلقية، ولا أن اللغات ذات الثقافات الأدنى تتميز دون غيرها بوجود الأصوات الحلقية[٢٢٤].

وثمة وجهة نظر أخرى أكثر تطوراً ترى أن بعض التغيرات اللغوية تقع بسبب بنية الجهاز النطقي عند الإنسان وطبيعته بالإضافة إلى آليات السماع، ومن هذه التغيرات ما يعرف بحذف نهايات الكلمات، فعلى سبيل المثال أخذت اللغة الفرنسية في الفترة بين القرنين التاسع والرابع عشر بعد الميلاد تفقد تدريجياً [n] في نهاية كلمات مثل an (سنة)، و en (في)، و bon (جيد)، و bien (حسن)، و coin (جانب)، و fin (نهاية)، و brun (بني)، وقد بدأ هذا التغير بما كان مسبوقاً بـ[a] وهي الحركة التي يكون اللسان عند النطق بها منخفضاً، ويكون الفم مفتوحاً بصورة واسعة نسبياً[٢٢٥] ثم تحرك هذا التغير بعد ذلك في اتجاه الحركات المتوسطة الانفتاح مثل [e]، و [o]، وفي النهاية إلى حركات مثل [i]، و [u]

(٢٢٣) انظر: ليونز، ج ١، ص ص ٣٨ - ٤٣، وأيضاً: Aitchision, P.P. 129-130

(٢٢٤) انظر أمثلة أخرى تثبت تهافتها في: Saussure, P. 149.

(٢٢٥) انظر: ايوب، ص ص ١٦ - ١٦٣.

والتي يكون اللسان فيها مرتفعاً ويكون الفم فيها مغلقاً نسبياً، فلماذا كان التغير في البداية خاصاً بالحركة الأدنى لساناً والأكثر انفتاحاً؟(٢٢٦).

في القرن العشرين اكتشف علماء الأصوات إلى حد ما كيف تصدر الأصوات، وأدت بنا تقنيات حديثة ـ مثل إدخال كاميرا صغيرة تحت الأنف، وغرس أقطاب كهربية في الفم وحوله ـ إلى معرفة مفصلة إلى حد ما للحركات العضلية التي يتضمنها النطق، وأمدتنا بمزيد من المعلومات ملاحظات خاصة بمريض بالسرطان كان يعاني من نسبة سرطان في وجهه مما تسبب في إزال أنفه، والشواهد التي جاءت من كل الاتجاهات أيدت أشياء كان علماء الأصوات في شك منها لفترة طويلة، فعندما تنطق السلسلة an تكون دائماً [ãn]، أي أن الحركة تكون أنفية لتأثرها بالصامت الأنفي بعدها، وهو ما يعني عدم وجود توازن (من حيث أنفية الحركات) بين [ãn] من جهة، و[en]، و[in]، و[on]، و[un] من جهة أخرى، ومن ثم يكون هناك اتجاهان: الأول حذف [n] غير الضرورية بعد [ã] نظراً لأن الحركة أنفية، ولأن الأنفي الأخير زائد عن الحاجة، والاتجاه الثاني السماح بانتشار الأنفية في الحركات الأخرى للحفاظ على اتساق النظام الصوتي، الأمر الذي يكشف عن وجود نقطة ضعف كامنة في أي لغة يوجد فيها التتابع [an]، فهذا التتابع يؤدي إلى أن تكون الحركة أنفية، وأن يُفْقَد الأنفي الأخير، وهو تغير شائع إلى حد كبير، وحدث في اللغة الصينية في الألف سنة الأخيرة كما حدث في اللغة الفرنسية، الأمر الذي تفسره الصعوبة التي يلقاها الإنسان عند غلق التجويف الفموي أثناء نطق التتابع [an] مما يتسبب في نقطة ضعف في اللغة يمكن أن يستثمرها تغير لغوي لاحق(٢٢٧).

ولا يعد هذا هو السبب الوحيد وراء ضعف الصوامت الأنفية النهائية، فكل الصوامت تكون ضعيفة في نهاية الكلمة إذا لم تتبعها حركة فهي تنطق بصورة أضعف وتكون ملاحظتها أصعب، وخلال الألف سنة الماضية فقدت الصوامت الشديدة المهموسة

(٢٢٦) Aitchison, P. P. 130 – 130 .

(٢٢٧) ibid, P. 132 .

[k]، و[t]، و[p] من نهايات الكلمات في اللغة الفرنسية، واللغة الصينية، وفي غيرهما من اللغات، ففي اللغة الصينية حل محلها في البداية وقفة حنجرية (أي توقف تيار الهواء مع عدم تضمنه صوتاً) ثم فقدت بعد ذلك الوقفة الحنجرية، ونرى هذه الظاهـرة أيضاً في لهجات كثيرة في اللغة الإنجليزية البريطانية ففي كل من اللهجة الـ Cockney، واللهجة الـ Glaswegian الآن وقفات حنجرية مكان [t]، و[k] الأخيرتين، وأيضـاً [p] الأخيرة بصورة أقل الأمر الذي يرجح أن تكون اللغة الإنجليزية تتبع الطريق ذاته(٢٢٨).

ولا يعود هذا التغير إلى مجرد الإهمال وعدم بذل جهد واضح للمحافظة على نطق الصوامت لكنه يرجع أيضاً إلى الضعف العام والمحتوم في نطق الصوامت الموجودة في نهاية الكلمات، ولنتناول نطق [k]، و[t]، و[p]، فمثل هذه الأصوات الشديـدة تنطق عن طريق الإعاقة التامة لمرور الهواء في نقطة ما (المخرج الصوتي) هي الشفتان في [p]، وخلف الأسنان مباشرة في [t]، وفي منطقة الحنك بالنسبـة لـ [k]، وتنطق الأصوات الصامتـة الشديدة في مراحل ثلاث متتابعة: المرحلة الأولى حدوث الإعاقة، والمرحلة الثانية البناء التدريجي للهواء المنضغط وراء موضع الإعاقة، والمرحلة الثالثة انفجار الهواء المنضغط وراء موضع الإعاقة عند انفراج العضوين المسببين للإعاقة، وتتضح هذه المراحل إذا ما تدبرت نطق أي صامت شديد، بيد أن المرحلة الثالثة تكون ضعيفة على نحو ملحوظ إذا كانت متعلقة بنطق [p]، و[t]، و[k] في نهاية الكلمة، ومن يحاول أن يظهر هذه المرحلة في نطق تلك الصوامت النهائية في كلامه فلن يخلو كلامه من التكلف وقد تزيد حركة إضافية (فتحة قصيرة) على آخرها(٢٢٩).

وثمة سبب آخر وراء ضعف تلك الصوامت وفقدانها التدريجي، فهذه الصوامت من الصعوبة سماعها وعلى الأخص عندما لا تكون انفجارية، وقد أكدت بعض التجارب التي أجريت صحة ذلك، فالمتكلمون بالكانتونية (Cantonese) ـ وهي لهجة صينية تحتوي على أصوات انفجارية نهائية محبوسة (unreleased) ـ اختبرت مقدرتهم على التمييز بينها فعندما

(٢٢٨) ibid, P. 132 -

(٢٢٩) ibid, P. 132 -

قرئت الكلمات في القوائم خارج السياق أخطأ المستمعون في قراراتهم فيما يتعلق بحوالي نصفها فقد تلقوا (٦٦٨) على نحو صحيح، وتلقوا (٥٢٠) على نحو خاطىء، والمجموع الكلي (١١١٨)، والأصوات الأنفية الأخيرة أتت بنتائج أفضل ولكن على نحو هامشي، فالمستمعون أخطئوا في حوالي الثلث فقد تلقوا (٨٤٥) على نحو صحيح، و (٣٤٣) على نحو خاطىء، والمجموع الكلي (١١١٨)[٢٣٠].

وبناء عليه يكون الاتجاه في سبيل عدم تمييز الصوامت الشديدة النهائية، ومن ثم رأينا معظم اللهجات الصينية تحل ببساطة وقفة حنجرية محل الأصوات الشديدة المهموسة الثلاثة، ثم تتجه إلى الحذف نتيجة الفقدان الكامل للصوامت الأصلية.

وثمة علة فسيولوجية أخرى يمكن أن نطلق عليها اسم الأداء السريع تتسبب في إحداث طائفة من التغيرات اللغوية، فعندما يتعلم شخص ما الكتابة يكتب في البداية ببطء وبشكل متقطع حرفاً حرفاً مع كل حركة من حركات القلم التي تؤدي على نحو منفصل، وعندما يصبح أكثر مهارة يتعلم أن يجمل هذه الأحداث المنفصلة مركبة ومتداخلة، وتصبح كتابته أسرع وأقل إجهاداً، ويقوم بربط الحروف المتنوعة معاً، وتحدث ظواهر مماثلة في اللغة المنطوقة، فعندما يتعلم أحد الأشخاص لغة جديدة يتكلم بصعوبة، وبصورة متلعثمة كلمة كلمة، وكل كلمة تنطق بعناية ووضوح، وعندما يصبح طليق اللسان يتعلم ربط هذه الكلمات والأصوات المنفصلة معاً بطريقة أكثر تدفقاً للحديث[٢٣١].

وتأخذ الأصوات والكلمات وهي تترابط معاً وجهتين: الأولى المماثلة وفيها يتحرك أحد الصوتين المتجاورين جزئياً أو كلياً في اتجاه الآخر، والثانية الحذف حيث يحذف من مجموعة الأصوات المترابطة أحياناً صوت أو أكثر، ويمكن أن تستكشف ذلك بنفسك إذا تحققت ودققت من الكلام المعتاد في المحادثة، وحتى الناس الذين ينتقدون غيرهم فيما يتعلق بازدراد كلماتهم من المرجح أنه ينفذون المماثلة والحذف في الأصوات بالطريقة التي وصفت

---

(٢٣٠) ibid, P. 133 .

(٢٣١) ليونز، ج ١، ص ص ١١٥ - ١١٦ .

آنفاً على الرغم من أنهم ينكرونها، وتميل مثل هذه الظواهر إلى أن تزحف إلى اللغة بشكل غير ملاحظ ثم تأتي فترة يتوقف الناس إزاء هذه الظواهر ويتخلون عن تجاهلها أو التساهل فيها ويبدؤون في الشكوى منها، وفي النهاية يتعامل الناس مع الهجاء ـ وليس مع النطق ـ بوصفه شيئاً منحرفاً، وعليه لا ينزعج أحد الآن من عدم نطق [t] في الكلمات الإنجليزية: whistle، و thistle، و castle، و fasten فالمماثلة والحذف موجودة في لغات العالم وعلى الأخص عندما يتلاقى صامتان أو أكثر، وفضلاً عن ذلك هناك بعض الشواهد التي تذهب إلى أن التتابع: صامت ـ حركة ـ صامت ـ حركة هو الأكثر اتصافاً بالطبيعية فيما يتعلق بالجهاز النطقي عند الإنسان، ويحاول أن يثبت قليل من اللغويين أن كل اللغات تكافح بشكل غير واع في اتجاه هذه الحالة الطبيعية، بيد أن ما هو صحيح على نحو مؤكد أن المتكلمين الحاذقين في كل اللغات المعروفة يبسطون بصورة حتمية سلاسل الصوامت وعلى الأخص إذا كانوا قادرين على أن يفهم بعضهم بعضاً بدون نطق كل صوت وكل كلمة بصورة مستقلة ومفصلة(٢٣٢).

وفي السنوات الأخيرة شيد علماء الأصوات قائمة شاملة إلى حد ما من التغيرات التي تحدث على نحو متكرر، ويرجع بعض هذه التغيرات إلى صعوبة حدوث عدد من حركات النطق معاً على نحو متقن ويرجع بعضها الآخر إلى مشكلات ادراكية وترجع تغييرات أخرى إلى التأثيرات الخاصة بأصوات معينة على أصوات أخرى.

فقد بين هؤلاء العلماء أن التتابع [ml] أو [mr] من المرجح أن يتغير بمرور الوقت إلى [mbl]، و [mbr]، وهذا التغير يرجع إلى أنه من الصعوبة حدوث الحركات النطقية التي يتضمنها نطق [ml]، و [mr]، فالشفتان تكونان مغلقتين أثناء نطق [m]، ويكون التجويف الأنفي مفتوحاً، وفي نهاية نطق الصوت [m] ينغلق التجويف الأنفي قبل انفراج الشفتين، وتكون النتيجة إقحام صوت [b] بين [m] من جهة والـ [l] أو [r] من جهة أخرى، وهو ما يفسر تحول famly (أسرة) في اللغة الإنجليزية إلى fambly، family، والصورة الأولى مثال

---

(٢٣٢) Aitchision, P. 135 .

لإقحام [b] بين [m]، و [l] كما أوضحنا آنفاً، والصورة الثانية فصل الصوتين [m]، و [b] بالحركة [i] تجنباً لصعوبة النطق التي أوضحناها من قبل، وبالمثل تحول الكلمة الإنجليزية braeml إلى bramble، و braemel (عليق)، وتحـول الكلمـة الإغـريقيـة amrotia إلى ambrosia (طعام الآلهة)، وبالمثل تميل [p] إلى أن تزحف بين [m]، و [t] فمعظم الناس ينطقون dreamt، و warmth، و something، و hamster كما لو كان هجاؤها على النحو التالي: drempt، warmpth، somepthing، و hampster، وتميل أيضاً [t] إلى أن تزحف بين [n]، و [s] وعليه فإن كلمات مثل: fancy، و tinsel، و mincer، و prince تسمع عادة كما لو كانت fantsy، و tintsel، و mintser، و prints(٢٣٣).

ومن التغيرات التي تعزى إلى صعوبة الإدراك تغير [l] الخلفية إلى [u]، فـال [l] الخلفية عندما تكون في نهاية الكلمة أو قبل صامت كما في pill (يقشر)، و bottle (زجاجة)، و film (فيلم سينمائي)، و milk (لبن) يمكن أن تسمع كما لو كانت تشبه [u]، وعليه يمكن أن تسمع في بعض التنوعات الموجودة في اللغة الإنجليزية الكلمات الآتية: bottle، و film، و milk كما لو كانت bottu، و fium، و miuk(٢٣٤).

ويؤثر وجود ng [n] في تحول [e] إلى [i] وهو ما نراه في كلمة England (انجلترا) والتي كـانت في يوم من الأيـام Engla-land (بلاد الإنجليـز) فهي تـنطق الآن كـما لـو كـانت (Ingland)(٢٣٥).

وتعد الإتجاهات الصوتية التي سبق ذكرها مجرد عينة من الاتجاهات الصوتيـة التي توجد في اللغات الإنسانية والتي تعد نتيجة حتمية للبناء الفيزيائي للإنسان، وبعضها يحدث بصورة مستمرة، وبعضها الآخر يحدث على نحو متقطع، وبعضها ينتظر إلى أن تسمح بعض الظروف لها بأنها تتسلل وتهيمن، واللغات المختلفة لا تحقق بصورة واضحة كل الاتجاهات الممكنة في وقت واحد، وسوف تتأثر اللغات المختلفة بطرق مختلفة، وبعض

(٢٣٣) ibid, P. 137.

(٢٣٤) ibid, P. 137.

(٢٣٥) ibid, P. 137.

الأشياء التي تؤثر بعمق في لغة من اللغات يمكن أن تترك لغة أخرى من غير أن تمسها، فعلى سبيل المثال لوحظ مؤخراً أن هناك في العالم اتجاهاً طبيعياً لأن تنطق الحركات مع طبقة صوت مرتفعة قليلاً بعد الصوامت المهموسة مثل [p]، و[t]، و[k] أكثر من الصوامت المجهورة مثل [b]، و[d]، و[g]، وهذا الاتجاه أصبح مبالغاً فيه في اللغة الصينية في القرون السابقة، وهذه المبالغة تبعها فقدان التمييز بين الصوامت المجهورة والصوامت المهموسة، والنتيجة أن اللغة الصينية اليوم لغة نغمية (ton language)[٢٣٦] فهي من اللغات التي تميز بين الكلمات عن طريق تنوع طبقة الصوت (pitch)، وهذا التغير الموجود بالقوة ترك اللغات الأوروبية ولم يمسها[٢٣٧].

---

(٢٣٦) انظر: Crystal, P. 272.

(٢٣٧) انظر: Aitchision, P. 138، وهناك أمثلة أخرى من التغير الصوتي أصابت بعض اللغات دون بعضها الآخر، والأرجح أن تلك المواضع تعد نقاط ضعف تنتظر الاستثار من قبل علل أخرى.

الفصـل السـادس

تقويـم عـام

التغير اللغوي يتصف بالاستمرارية، والحتمية، والطبيعية. ويعود إلى مزيج من العوامل البنيوية، والاجتماعية، والنفسية، والفسيولوجية، وهي عوامل لا نستطيع في كثير من الأحوال أن نعزل الواحد منها عن الآخر، والأرجح أن هذه العوامل متداخلة ومتفاعلة، ويمكن أن يرجع التغير اللغوي في نقطة معينة في لغة ما إلى العديد من العوامل في آن واحد، فالعلل الاجتماعية على سبيل المثال تدفع باللغة إلى التغير في الإتجاه الذي يتناسب مع بنيتها اللغوية حيث تقوم باستثمار نقاط الضعف فيها.

والتفكير اللغوي فيما مضى نظر إلى التغير اللغوي من زاوية دينية أو فلسفية بعيداً عن الشواهد اللغوية المستقلة.

فمن وجهة النظر الدينية نظر بشكل عام إلى التغير اللغوي باعتباره فساداً وانحرافاً عن الصورة المثالية التي ينبغي التمسك بها، ونظر بعض علماء اللغة التاريخيين من هذا المنظور إلى التغير اللغوي ومن ثم بذلوا جهوداً مضنية جرياً وراء اكتشاف الصورة المثلى للغة متمثلة في اللغة الأمّ، ورأوا أن هدف علم اللغة المقارن الأسمى هو الوصول إلى تلك الصورة النقية التامة للمرحلة اللغوية الأولى والتي صدرت عنها تلك الصيغ اللغوية المعاصرة، ومن الملاحظ أن تلك الرؤية التي صدرت من وحي الإيمان والدين سارت جنباً إلى جنب مع رؤية أخرى صدرت من وحي الفلسفة ونظرية التطور.

ومن وجهة النظر الفلسفية ووفقاً لنظرية التطور يسير التغير اللغوي وفق اتجاه معين في سبيل توصل اللغة أو نظام الاتصال الطبيعي عند الإنسان إلى الاتصاف بالوضوح الاتصالي والجهد الأقل، أو بعبارة أخرى مزيد من الجوانب الإيجابية في اللغة. فإذا كان داروين Darwin يرى أن البقاء للأصلح، وإن التقدم حتمي وضروري وليس عارضاً وهو جزء من الطبيعة، فإن هذا ينطبق كذلك على اللغة حيث يكتب باستمرار الانتصار لأفضل الصيغ اللغوية واقصرها وأيسرها، ويرجع نجاح هذه الصيغ إلى قوتها الذاتية المتأصلة فيها.

ومبدأ البقاء للأصلح فيما يتعلق باللغة يعني ضمناً أن الصيغ اللغوية واللغات التي تبقى على قيد الحياة هي أفضل حتماً من تلك التي ماتت، مما يجعل مفهومي التقدم والتحلل يتداخلان مع مفهومي الامتداد والانحسار اللغويين، وهو أمر يبدو زائفاً تماماً، إذ إن الامتداد والإنحسار اللغويين يعكسان مواقف سياسية واجتماعية فحسب، وما كان انتشار اللغات على مر التاريخ إلا لأسباب سياسية وعسكرية واقتصادية تتعلق بالأمم التي تتكلم تلك اللغات، فقد أبعدت اللغة العربية اللغة القبطية في مصر لأنها، أي العربية، هي التي كانت لها بعد الفتح الإسلامي المكانة الاجتماعية والسياسية[٢٣٨]، وتموت الآن اللغة النوبية في جنوب مصر لأنها محدودة الاستخدام في إطار البيت النوبي فحسب ولا يمارس بها النوبي نشاطاً ثقافياً أو اجتماعياً أو سياسياً، وماتت اللغة الغيلية لأن اللغة الإنجليزية أبعدتها وهي اللغة ذات المكانة الاجتماعية والسياسية، وانحسرت اللغة العربية في جنوب غرب أوروبا بعد انحسار النفوذ السياسي العربي في الأندلس، فاللغة لاتنحسر بسبب تعقيدها البنيوي أو تحللها كتحلل الكائن كما كان متصوراً في القرن التاسع عشر، ولكن تنحسر وتمتد لأسباب اجتماعية وسياسية وعسكرية واقتصادية، وليس أدل على ذلك من أن اللغة العربية في الفترات السابقة انحسرت في مناطق وامتدت في مناطق أخرى، حيث انحسرت في جنوب غرب أوروبا وامتدت في مناطق أخرى في أفريقيا، خصوصاً مع زيادة النفوذ السياسي والعسكري لمصر أيام محمد علي، ومصر بعد الثورة.

وتملي علينا الروح العلمية أن نكف عن الصدور عن المواقف الدينية والفلسفية عند تعرضنا للاتجاه الذي تسير وفقاً له اللغات في تغيرها، حيث تقودنا المواقف الأولى إلى مثالية لا منطقية للماضي وحيث تقودنا المواقف الثانية إلى الخلط بين مظاهر التقدم والتحلل من جهة، والتوسع والإنحسار من جهة أخرى، أو قد تقودنا إلى بعض النتائج الزائفة، فقد ذهب عدد من اللغويين منهم يسبرسن إلى أن التفوق والتقدم اللغويين يكمنان في أن تكون اللغة قادرة على أن تعبر عن قدر أكبر من المعاني بطريقة أبسط، الأمر الذي يترتب عليه أن نعد اللغات الهجينة اللغات الأكثر تقدماً، وهو ما يتعارض مع ظواهر أخرى مشاهدة فيها

(٢٣٨) حجازي، اللغة العربية عبر القرون، ص ص ٤٥ - ٥٣.

حيث تقترن البساطة باللبس والغموض ومايصحبها من إرهاق[٢٣٩]، وبعبارة أخرى فإن ما يصدر عن هذه الرؤية من أن الفضيلة المتأصلة تكون لأقصر الصيغ واسهلها التي تعبر عن أكبر قدر من المعاني يعارضه أن مثل هذه الصيغ ينتج عنها اشتراك لفظي واسع المدى يترتب عليه كثير من الغموض والإرهاق مثلما نراه في كلمة (hat) في اللغة المولدة المعروفة باسم الـ Tok Pisin والتي تعبر عن الدلالات الخاصة بكلمات انجليزية عديدة هي : hot، و hard، و hat، و heart [٢٤٠].

ولا يمكن اعتبار البساطة مقياساً مباشراً للمفاضلة بين اللغات، فعلى الرغم من أن اللغويين يستطيعون أن يذهبوا إلى أن اللغة ذات الاطرادات الأعظم، والتي لا ترهق الذاكرة بالصيغ الشاذة تكون أفضل من غيرها إلا أن هذا العامل وحده لا يمكن أن يكون معياراً للمفاضلة بين اللغات، فلا يمكن إهمال كفاءة النظام اللغوي ككل. وأكثر من ذلك، فإن هذه الرؤية لا يمكن تطبيقها عملياً، نظراً لأن اللغة التي هي بسيطة ومطردة في جانب من الجوانب يحتمل أن تكون معقدة ومضطربة في جوانب أخرى، ويبدو أن هناك علاقة لا نفهمها (وفق معطياتنا العلمية الراهنة) بين تلك الجوانب المختلفة، وقد ظهر هذا الأمر بصورة واضحة في بحث تناول بالمقارنة تقدم الأطفال الأتراك في اكتسابهم لغتهم الأم وتقدم الأطفال اليوغسلاف في اكتسابهم لغتهم الأم كذلك، وكانت النتائج أن الأطفال الأتراك يجدون سهولة كبيرة على نحو استثنائي وهم بصدد تعلم تصريفات لغتهم، ويستطيعون السيطرة على النظام التصريفي بأكمله وهم في سن السنتين نظراً لأنه نظام مباشر ومطرد على نحو ملحوظ، بيد أنهم يعانون من جوانب أخرى تتميز بالصعوبة والتعقيد. فهم يتقدمون بصعوبة في تعبيرات الصلة (تلك التعبيرات التي تبدأ في اللغة العربية بالأسماء الموصولة) ولا يسيطرون عليها إلا وهم في سن الخامسة، ومن الناحية الأخرى وجد أن الأطفال اليوغسلاف يعانون من مشكلات كبيرة تتعلق بالنظام التصريفي للغة الصربوكرواتية، ولا يكونون أكفاء في معالجتهم لها حتى سن الخامسة، بيد أنهم لا يكون لديهم مشكلات

(٢٣٩) Yule, P.P. 186-187.

(٢٤٠) Aitchision, P. 226.

تتعلق بتعبيرات الصلة في لغتهم الأم، ويمكنهم السيطرة عليها في سن الثانية (٢٤١).

وإذا ما أخذنا الأمور السابقة في الحسبان يكون من الصعوبة بمكان أن نحدد على نحو مرض ما يعنيه بعض اللغويين باللغة الكاملة (Perfect Language) حيث نلاحظ أن اللغات تتفاضل في بعض جوانبها وليس في النظام بأكمله.

ولا توجد شواهد على أن اللغات تتقدم في اتجاه البساطة والاطراد كهدف نهائي، فثمة شد وجذب مستمران بين تحطيم الأنماط المطردة وترميمها في إطار التغير اللغوي، بحيث يكون من الخطأ أن ننظر إلى عملية تصفيف الأنماط واطرادها (التي تقع في إطار التغير اللغوي) على أنها خطوة للإمام، ومن الخطأ كذلك أن ننظر إلى عملية تحطيم الأنماط المطردة وتمزيقها (وهي التي تحدث في إطار التغير اللغوي كذلك) على أنها خطوة للوراء، فقد لا يزيد الأمر عما يحدث في مكتب تتكوم فيه الأشياء بغير نظام فيعاد ترتيبه بحيث يعود إلى حالة يكون من الممكن تشغيله، ثم يضطرب نظامه بعد ذلك نظراً لما قد يكون بمثابة امتدادات وظيفية له، الأمر الذي يلزم إعادة ترتيبة مرة أخرى وهلم جراً، فاتجاهات التمزق وتحطيم الأنماط المطردة تتنافس مع الاتجاهات العلاجية الخاصة بإعادة التصفيف والتنظيم بحيث يمكن تصور النظام اللغوي وقد وقع أسير هذه العمليات المتعاقبة أحياناً والمتزامنة أحياناً أخرى.

إذن، اللغة لا تتقدم نحو هدف منشود كما تذهب وجهة النظر الفلسفية التي تتمسك بالتقدم المحتوم والتطور النشوئي، كما أنها لا تتحلل ولا تفسد بمرور الزمن ولا تفقد عذريتها ولا نقاءها ولا براءتها كما تذهب وجهات النظر الدينية. فهل هناك شواهد على أن اللغات جميعاً تتحرك حتى في اتجاه معين فيما يتعلق بالبنية الأساسية لها؟ فهل مثلاً هناك اتجاه معين تتحرك في اتجاهه اللغات فيما يتعلق بترتيب الكلمات في إطار الجملة؟.

لدينا بعض الشواهد التي تلقي ضوءاً على هذا السؤال، فعبر ألفي سنة تقريباً تحركت معظم اللغات الهندية الأوربية من لغات تتبنى الترتيب S O V (فاعل - مفعول - فعل) إلى

(٢٤١) Aitchision, P. 227.

لغات تتبنى الترتيب S V O (الفاعل ـ الفعل ـ المفعول)، وثمة لغات نيجرية كنغوية معينة اتبعت الطريق ذاته، ومع ذلك لا يمكننا أن ننظر إلى هذا الطريق على أنه اتجاه عام لحركة التغير اللغوي، نظراً لأن اللغة الصينية الماندرينية تخضع لتغير مضاد الاتجاه حيث تتخلى عن الترتيب S V O (فاعل ـ فعل ـ مفعول) إلى الترتيب S O V (فاعل ـ فعل ـ مفعول) إلى الترتيب S O V (الفاعل ـ المفعول ـ الفعل) (٢٤٢) .

ونجد تناقضات أخرى في اتجاهات التغير اللغوي فيما يتعلق بجوانب أخرى، فإذا كانت اللغة الإنجليزية واللغات الهندية الأوروبية الأخرى فقدت نهاياتها التصريفية وتحركت في اتجاه ترتيب ثابت للكلمة مثل ماتراه في العربية الدارجة فإن لغة الوابو Wappo وهي لغة هندية في كاليفورنيا يبدو أنها تسير في اتجاه مضاد وتتحول من نظام يعبر فيه عن العلاقات النحوية من خلال ترتيب الكلمات في الجملة إلى نظام آخر تميز فيه تلك العلاقات عن طريق النهايات التصريفية (٢٤٣) .

وبأخذ الشواهد الأخيرة في الحسبان نستنتج أنه ليس هناك اتجاه محدد للتغير اللغوي(٢٤٤) وأن اللغات متساوية تماماً من الناحية التاريخية مثلما ثبت تساويها التام من الناحية التزامنية كنظام إشاري شديد التعقيد وعالي الكفاءة(٢٤٥) .

والتغير اللغوي ليس خطيئة اجتماعية بأي معنى من المعاني، بيد أنه قد يكون في بعض الظروف أمراً غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية، فالتنوعات الثانوية في النطق من منطقة إلى أخرى أمور غير مهمة، بيد أن التغير الذي يحطم الفهم المتبادل في الجماعة يمكن أن يكون موضع ازعاج من الناحيتين الاجتماعية والسياسية، وإذا حدث هذا فقد يكون من المفيد أن يشجع التوحيد اللغوي عن طريق تبني تنوع نموذجي للغة يكون كل فرد قادر على استخدامه جنباً إلى جنب مع اللهجات أو اللغات الإقليمية الموجودة.

---

(٢٤٢) Aitchision, P. 228 .

(٢٤٣) ibid, P. 228 .

(٢٤٤) Entwistle, P. 38 .

(٢٤٥) ليونز، ج ١، ص ص ٤٢ ـ ٤٣ .

وتتضح تلك الجوانب السلبية للتغير اللغوي في كثير من الجماعات اللغوية ففي البث التلفيزيوني لاحتفالات مصر بعودة طابا كان من الملاحظ أن المشاهد يرى صعوبة في فهم كثير مما يقوله البدو (والمسنون منهم بصفة خاصة)، وفي إطار الجماعة اللغوية الناطقة باللغة المولدة المعروفة باسم Tok Pisin يلقى المتكلمون من المناطق الريفية صعوبة كبيرة في فهم التنوعات الحضرية، وفي اللغة الإنجليزية نجد هناك من متكلمي اللغة الإنجليزية البريطانية من لا يفهم الواحد منهم الآخر، وهناك حالات مماثلة في الولايات المتحدة الأمريكية (٢٤٦).

وإذا ما حاول المشرعون تفادي مثل هذه المشكلات يكون من المناسب أن يشجعوا تبني الجماعة اللغوية (بالمعنى الواسع) الواحدة شكلاً معيناً من الأداء اللغوي، بيد أن عليهم أن يكونوا من المهارة والبراعة والوعي بما لا ينتج عن تدخلهم نتائج عكسية، وفي كثير من الحالات يكون لدى الناس بصورة تلقائية مستوى لغوي مشترك يمارسونه جنباً إلى جنب مع المستويات الإقليمية الأخرى، وهو المستوى اللغوي القياسي الذي يكون مصدر الكبرياء الوطني أو القومي ورمزاً للاستقلال والتفرد. ومن حسن طالع الأمة العربية أن لها المستوى اللغوي المشترك اللغة العربية الفصحى والتي يستخدمها كل العرب من الخليج العربي إلى المحيط الاطلنطي جنباً إلى جنب مع لهجات عربية إقليمية دارجة لا تبعد كثيراً عن اللغة الفصحي، وعلى أبناء الأمة العربية إذا ما أرادوا حفظ لغتهم وحمايتها من الانحسار والضعف أن يعوا جيداً أن امتداد اللغات وهيمنتها أو انحسارها وضعفها لا يرجع إلى خصائص أصيلة في بنيتها (حيث تتساوى اللغات جميعاً في الخصائص الأساسية للبنية) وإنما يرجع إلى عوامل سياسية واقتصادية وعسكرية وثقافية واجتماعية، فبقدر ما تكون قوة الأمم تكون قوة لغاتها، وبقدر هيمنة الأمم تكون هيمنة لغاتها، والأمم التي تُغْزَى في لغاتها تكون قد غُزيت من قبل في جوانبها السياسية والاقتصادية والعسكرية، والوسيلة الوحيدة الناجعة والفاعلة للارتقاء باللغة العربية الفصحى هي الارتقاء العام السياسي والاقتصادي والعسكري، ومن يحب للغته العربية الازدهار فعليه أن يسير في اتجاه التنمية الشاملة.

(٢٤٦) Aitchision, P.P. 230-231.

المراجع

١ ـ إبراهيم، زكريا: **مشكلة البنية أو اضواء على البنيوية**، القاهرة، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

٢ ـ الأزهري، خالد بن عبد الله: **شرح التصريح على التوضيح**، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

٣ ـ أكبر، عبد العزيز علي: **الممنوع من الصرف في اللغة العربية**، القاهرة، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ـ كلية دار العلوم، ١٩٨٠.

٤ ـ أمين، محمد شوقي ـ حجازي، مصطفى (المحرران): **كتاب في أصول اللغة ـ الجزء الثاني**، ط ١، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ١٩٧٥.

٥ ـ أنيس، إبراهيم: **في اللهجات العربية**، ط ٤، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٣.

٦ ـ أنيس، إبراهيم: **دلالة الألفاظ**، ط ٤، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠.

٧ ـ أيوب، عبد الرحمن: **أصوات اللغة**، ط ٢، القاهرة، مطبعة الكيلاني، ١٩٦٨.

٨ ـ بشر، كمال (وآخرون): **معجم مصطلحات علم اللغة الحديث** وضع نخبة من اللغويين العرب، ط١، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٣.

٩ ـ البعلبكي، منير: **المورد**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٦.

١٠ ـ البغدادي، عبد القادر بن عمر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧.

١١ ـ التوني، مصطفى زكي: **ديوان أوس بن حجر ـ معجم ودراسة دلالية**، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ـ كلية الآداب، ١٩٨١.

١٢ ـ التوني، مصطفى زكي : **القضايا الخاصة بتجديد النحو وتيسيره في مصر في القرن العشرين**، القاهرة، رسالة دكتوراة، جامعة عين شمس ـ كلية الآداب، ١٩٨٣ .

١٣ ـ الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، ط ١، القاهرة، مكتبة القاهرة، ١٩٧٢ .

١٤ ـ الجندي، أنور: **الموسوعة الإسلامية العربية والفصحى لغة القرآن** بيروت، ، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢ .

١٥ ـ ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، مطبعة الكتب المصرية، ١٩٥٢ .

١٦ ـ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، **تقويم اللسان**، تحقيق عبد العزيز مطر ط ٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣ .

١٧ ـ الحاج، كمال يوسف: **فلسفة اللغة**، بيروت، دار النشر للجامعيين، ١٩٥٦ .

١٨ ـ حجازي، محمود فهمي : **مدخل إلى علم اللغة**، ط ٢، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٧ .

١٩ ـ حجازي، محمود فهمي : **اللغة العربية عبر القرون**، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٧٨ .

٢٠ ـ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد: **الأحكام في أصول الأحكام**، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥ .

٢١ ـ حسان، تمام: اللغة والنقد الأدبي، **فصول مجلة النقد الأدبي**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الرابع، العدد الأول، ١٩٨٣ .

٢٢ ـ حسن، عباس: **النحو الوافي**، ط ١، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣ .

٢٣ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن: **مقدمة العلامة ابن خلدون**، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بدون تاريخ .

٢٤ ـ الخولي، محمد علي: **معجم علم اللغة النظري**، ط ١، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٢.

٢٥ ـ الخولي، محمد علي: **معجم علم اللغة التطبيقي**، ط ١، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٦.

٢٦ ـ الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: **لحن العامة**، تحقيق عبد العزيز مطر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١.

٢٧ ـ السنجرجي، مصطفى عبد العزيز محمد: **اللهجات النحوية وموقف النحاة منها**، القاهرة، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة ـ كلية دار العلوم ١٩٦٨.

٢٨ ـ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الأندلسي، **أمالي السهيلي في النحو والصرف والحديث والفقه**، ط ١، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٧٠.

٢٩ ـ سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.

٣٠ ـ ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، **المخصص**، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٣٢١ هـ.

٣١ ـ السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق محمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلى محمد البجاوي، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط ٣، بدون تاريخ.

٣٢ ـ صالح، نهاد حسوبي: **جهود ابن الحنبلي اللغوية مع تحقيق كتابه عقد الخلاص في نقد كلام الخواص**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧.

٣٣ ـ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف**، تحقيق السيد الشرقاوي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٧.

٣٤ ـ الصقلي، ابن مكي: **تثقيف اللسان وتلقيح الجنان**، تحقيق عبد العزيز مطر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١.

٣٥ ـ ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد: **العقد الفريد**، القاهرة، ط١، المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣٣١هـ.

٣٦ ـ ابن عصفور، علي بن مؤمن: **المقرب**، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، ط ١، بغداد، رئاسة ديوان الأوقاف ـ أحياء التراث الإسلامي، ١٩٧٢.

٣٨ ـ ابن فارس، أحمد: **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، القاهرة، المكتبة السلفية، ١٩٦٠.

٣٩ ـ الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد: **الحجة في علل القراءات السبع**، تحقيق على النجدي ناصف، وعبد الفتاح شلبي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣.

٤٠ ـ الفقي، حامد عبد العزيز، **دراسات في سيكولوجية النمو**، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٤.

٤١ ـ فندريس، ج: **اللغة**، تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٠.

٤٢ ـ الفيروز آبادي، مجد الدين بن يعقوب: **القاموس المحيط**، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية ١٣٠١ هـ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.

٤٣ ـ كيرزويل، أديث: **عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو**، ترجمة جابر عصفور، بغداد، دار آفاق عربية، ١٩٨٥.

٤٤ ـ الكيلاني، تيسير ـ والكيلاني، مازن: **معجم الكيلاني لمصطلحات الحاسب الالكتروني**، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٧.

٤٥ ـ ليونز، جون: **اللغة وعلم اللغة الجزء الأول**، ترجمة مصطفى زكي التوني، ط١، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٧.

٤٦ ـ ليونز، جون: **اللغة وعلم اللغة** ـ الجزء الثاني، ترجمة مصطفى زكي التوني، ط ١، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٨.

٤٧ ـ مالمبرج، برتيل: **علم الأصوات**، ترجمة عبد الصبور شاهين، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٨٦.

٤٨ ـ محمد، أحمد زكي: **مبادىء علم النفس التعليمي**، ط ٢، القاهرة مكتبة مصر ومطبعتها، ١٩٥٣.

٤٩ ـ المرادي، حسن بن قاسم: **الجني الداني في حروف المعاني**، القاهرة، رسالة دكتوارة، جامعة القاهرة ـ كلية العلوم، ١٩٧٦.

٥٠ ـ أبو مغلي، سميح عبد الله: **اقتراض الألفاظ في اللغة العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، القاهرة، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ـ كلية دار العلوم، ١٩٧٦.

٥١ ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري: **لسان العرب**، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٨٩١.

٥٢ ـ نصار، حسين: **المعجم العربي نشأته وتطوره**، ط٢، دار مصر للطباعة، ١٩٦٨.

٥٣ ـ ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله: **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الفكر، بدون تاريخ.

٥٤ ـ ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي: **شرح المفصل**، القاهرة، مكتبة المتنبي، بدون تاريخ.

55 - Aitchision, J., **Language Change progress or Decay?**, London, Fontana Paperbacks 1981.

56 - Bach, E. & Harms, R. (ed.) **Universals in Linguistic Theory**, New York, Holt, Rinehart and Winston, Inc. 1968.

57 - Bloomfield, L., **Language**, London, Allen and Unwin, 1935.

58 - Bynon, T., **Historical Linguistics**, Cambridge, Cambridge University Press, 1977.

59 -Crystal, D., **A First Dictionary of linguistics and phonetics**, London, Andre Deutsch, 1980.

60 -Downes, W., **Language and Society**, London, Fontana Paperbacks, 1984.

61 -Ellis, A. & Beattie, G. **The Psychology of Language and Communication**, London, Weidenfeld and Nicolson, 1986.

62 -Entwistle, W., **Aspects of Language**, London, Faber and Faber, 1951.

63 -Ezzat, A., **Aspects of Language study**, Cairo, Book Centre, 1978.

64 -Greene, J., **Psycholinguistics**, Chomsky and Psychology ,England, Penguin Books Ltd, 1972.

65 -Gumperz, J. & Hymes, D (ed.) **Directions in Sociolinguistics**, The Ethnography of Communication, New York, Basil Blackwel Ltd, 1986

66 -Jeffers, R. & Lehiste, I., **Principles and Methods for Historical Linguistics**, Cambridge, The Massachusetts Institute of Technology, 1979.

67 -King, R. **Historical Linguistics and Generative Grammar**, London, Prentice - Hall International, Inc. 1969.

68 - Kiparsky, P. **Linguistic Universals And Liguistic Change**, in Beach & Harms (ed.) 1968, P.P. 170 - 202.

69 -Kiparsky, P., **Historical Linguistics**, in Lyons (ed.) 1970, P.P. 302 - 315.

70 -Labov, W., **On the Mechanism of Linguistic Change**, in Gumperz & Hymes (ed.), 1986, p.p. 512 - 538.

71 -Lambert, W. F., **Language, Psychology and Cluturd**, Selected and Introduced by Anwar S. Dill. California, Stanford University Press, 1972.

72 -Lyons, J. (ed.), **New Horizons in Linguistics**, England, Penguin Books Ltd. **1970.**

73 -Nida, E., **Componential Analysis of Meaning**, An Introduction to Semantic Structure, Paris, Mouton the Hague, 1975.

74 -Palmer, F., **Semantics**, A new outline, Cambridge, Cambridge University Press, 1976.

75 -Saussure, F., **Course in General Linguistics**, London, Philosophical Library Inc 1959.

76 -Thorne, J. **Generative Grammar and Stylistic Analysis**, in Lyons (ed.) 1970, P.P. 185 - 197.

77 -Yule, G., **The Study of Language**, An introduction, Cambridge, Cambridge University Press, 1985.
page 107.